تشارلز ديكنز

دافيد كوبر فيلد

رواية

تقديم وتحرير

صبحي سالم

الكتاب: دافيد كوبر فيلد (رواية)

الكاتب: تشارلز ديكنز

تقديم وتحرير: صبحي سالم

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

ديكنز، تشارلز

دافيد كوبر فيلد / تشارلز ديكنز، تقديم وتحرير: صبحي سالم

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٠٥ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٨ – ٠٠٤ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع: ١٧٨٢٧ / ٢٠٢٠

دافيد كوبر فيلد

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

بين الرواية وسيرة الكاتب

تقوم رواية "ديفيد كوبر فيلد" في جوانب عديدة منها على سيرة تشارلز ديكنز الذاتية، فقد استمد الكثير من مادتها من حياته الخاصة، وبما يخدم غرضه كروائي، وإن صاغ وقائع وأحداث كثيرة بخياله الخصب، وإن أنكر الكاتب اعتماده على سيرته الذاتية فيها، لكنه لم ينكر وجود الكثير من نقاط التشابه بين ما حدث له طفولته وبين طفولة دايفيد كوبر فيلد، لذلك كتب عنها قائلا: "من بين كتبي كلها، أحب هذه الرواية أكثر من غيرها. ومثل أي والدين مُغرمين بأطفالهما: لدي في أعماق قلبي طفل أثير واسمه ديفيد كوبرفيلد". والرواية يحكي أحداثها على لسان بطلها «ديفيد كوبر فيلد» وهو فتى نقي القلب إلى درجة السذاجة، يتعرض للسلب والغش من كل من يلقاه، لكن ذلك لا يتفق مع بدايته، ففي العاشرة من عمره عمل في مصنع حقير وخالط العمال والمحتالين، وهذا يشبه تماماً ما حدث مع ديكنز في طفولته، ومن العجب أن يظل ديفيد على هذه السذاجة وقلة الحيلة، فلم يتعلم من دروس الحياة القاسية شيئاً وظل عديم الخبرة.

والرواية تلخص قصة حياة ديفيد، وما شهده في سنوات حياته و منذ أن أبصرت عيناه الدنيا؛ إذ مات أبوه قبل أن يولد هو، فتحملت أمه

ومربيته بيجوتي مسئولية تربيته، وكان في تلك الفترة سعيدا، ولكن سعادته لم تكتمل، فقد وقع الحدث الأسوأ في حياة ديفيد وهو في الثامنة من العمر، إذ تزوجت أمه من رجل يدعى ميردستون، وقد كان فظا غليظ القلب، كره ديفيد منذ اللحظة الأولى، ومع الأيام زاد تعنيف هذا الرجل لديفيد إلى أن جاء يوم ضرب فيه ميردستون ديفيد ضربا مبرحا بالعصا بمبرر أنه مهمل ولا يهتم بدراسته، وهو الأمر الذي دفع ديفيد لحظتها إلى الدفاع عن نفسه فقام بعض ميردستون من يده، فيعاقبه زوج الأم بأن يلحقه بمدرسة داخلية، ليحرمه من رؤية أمه، التي تمرض وتموت بعد فترة، ليقوم زوجها بإرساله إلى لندن للعمل، وهناك يتذكر دايفيد أن أمه سبق أن ذكرت له أن له عمة تعيش بالقرب من مدينة دوفر، فتوجه إلى بيت عمته، وبالفعل تبنته العمة وأرسلته إلى مدرسة راقية في دوفر، حيث درس القانون، وتأهل لممارسة المحاماة، وبعد التخرج ذهب إلى مكتب سبنلو وأحب ابنته، واستطاع أن يتزوجها وعاش معها سنوات من السعادة التي طالما بحث عنه.

ولكن القدر كان متحيزا ضده بشدة، إذ توفيت زوجته مما جعله يعاني من الاكتئاب الشديد، ويذهب للعيش في سويسرا محاولان أن يجد السعادة من جديد، وهناك قام بكتابة اول رواية له وبالفعل قام بنشرها، وبعد سنوات قرر العودة إلى إنجلترا وتزوج من سيدة تدعى اجنيس وانجب منها أبناءه وأصبح فيما بعد روائيا شهيرا.

يأخذنا ديكنز إلى الوراء مع بطل الرواية، حيث تبدأ الرواية مع

ديفيد كوبر فيلد البطل الذي يأتي إلى العالم بعد وفاة والده بستة أشهر، فيعيش كطفل يتيم الأب مع أمه حياة سعيدة ومديرة منزلهم التي كانت تحبه كثيراً، وحياة كوبر فيلد بدون اب جعل كل من الام ومديرة المنزل يحاولان تعويضه عن هذا الحرمان بمحاولاتهم المستمر في جعله سعيد، ولكن الحياة تتغير تماماً بعد ظهور زوج أمه وانتقاله للحياة معهم، وصفه كوبر فيلد بأنه رجل قاس، ملامحه غليظة، لا يحب الابتسام، ويشرح البطل من خلال أحداث الرواية كيف كان زوج الأم يعاقبه باستمرار ويتعمد توبيخه وإهانته.

وهذه النهاية التي ختم بها ديكنز روايته نهاية سعيدة، فبعد كل صنوف المعاناة التي لاقاها في حياته فإن الانتصار كان أخيرا للخير، وهذه السمة نجدها عند ديكنز وهي ما يعرف "بالنهاية الشاعرية" التي تنتصر دائما للخير على حساب الشر، وقد لفتني في الرواية جملة تؤكد مفهوم النهاية الشاعرية تأتي على لسان آجنيس فتقول: "آمل أن يكون الحب والحقيقة أقوى دائما من الشر".

وقد عبّر ديكنز في العديد من رواياته خصوصا "دايفيد كوبر فيلد" و"أوليفر تويست" ومن خلال معاناة صبي صغير، فقد والدته بعد ولادته مباشرة ونشأ يتيماً في أحد الملاجئ رفقة أطفال آخرين يتامى يشتركون جميعا في البؤس والصراع من أجل في ملجأ أشبه بسجن. ونجد ذلك في شخصيات مثل بيلا ويلفر، الفتاة الجميلة التي تنشأ في أسرة فقيرة، أو شخصية تشارلز هيكسام الذي وظفه لغرض انتقاد التعليم المتاح

للفقراء في ذلك العهد، في أقسام صاخبة، غير ملائمة للدراسة.

وقد اعتاد تشارلز ديكنز أن ينشر رواياته في شكل حلقات شهرية في الصحف والدوريات قبل أن يجمعها معا وينشرها في كتاب، وعلى عكس الكثير من الأدباء الآخرين الذين كانوا يكتبون رواياتهم بالكامل قبل نشرها مسلسلة، فإن ديكنز كان يؤلف أعماله على أجزاء بالترتيب الذي يُريد أن تظهر عليه أعماله، وقد أدت هذه الممارسة إلى إيجاد إيقاع خاص لقصصه يتميز بتتابع الأحداث المثيرة واحداً بعد الآخر، وهو الأمر الذي كان يثير فضول القراء، وذلك ابتداء من أول أعماله التي نشرها في صحف بين ١٨٣٣ و١٨٣٦م.

هكذا دارت أحداث الرواية، فماذا عن سيرة كاتبها؟

ولد "تشارلز جون ديكنز" في السابع من فبراير ١٨١٢م في مدينة بورتسموث على الساحل الجنوبي لانجلترا، وكان ترتيبه الثاني بين إخوته الثمانية، وكان أبوه موظفاً في خزانة البحرية الإنجليزية، وكانت أحوال الأسرة مضطربة أشد الاضطراب، وذلك لأن أباه كان رجلاً بوهيمي النزعة، غريب الأطوار، عجز عجزاً تاماً عن تدبير أحواله المالية في حدود موارده الفعلية، وقد اتخذ منه تشارلز ديكنز في أن نموذجاً لشخصية مؤثرة في روايته «ديفيد كوبر فيلد» وهو مستر ميكاوبر.

بعد عامين من ولادة تشارلز نقل الأب للعمل في لندن، وكانت لديه مكتبة صغيرة، تضم عددا من الروايات، مما أتاح للطفل الصغير أن يقرأ هذه الكتب ويعيد قراءتها، وقد تأثرت أعماله فيما بعد بهذه الكتب،

وفي سنة ١٨٢٢، أخرجه والده من المدرسة ليوفر نفقات تعليمه، وكان والده مدينا وعجز عن سداد ديونه فتعرض إلى السجن في عام ١٨٢٤. فاضطر تشارلز للعمل في مصنع لطلاء القوارب بجانب نهر التايمز. وكان يحصل على ستة شلنات أسبوعيًا لقاء عمله، وبعد سنوات عمل موظفا إدارياً في مكتب محاماة وهو في الخامسة عشر من العمر. وخلال تلك الفترة نعم تشارلز ديكنز بالحرية، فكان يقضي أمسياته متجولاً في شوارِع لندن وأزقتها، لا سيما الشواطئ التي يكثر فيها البحارة.

وكان تشارلز يتسلل بين الحين والآخر، يجوب الشوارع، وما يحيط بها من أحياء فقيرة، تتخللها الخرائب والحفر، وامتد تجواله فيما بعد إلى حي سوهر المشهور بسكانه من المنبوذين من المجتمع والخارجين على القانون، واشتدت ضائقة الأسرة، وكان تشارلز ديكنز هو الذي يحمل إلى حوانيت المرابين قطع الأثاث بالبيت.

وبعد عام من التحاقه بالمكتب، بدأ ديكنز يمارس عمله ككاتب تقارير مستقل في المحاكم القانونية في لندن، وبعد عدة سنوات أصبح يعمل كمراسل صحفي لصحفيتين كبيرتين في لندن.، وعام ١٨٣٣، بدأ بتقديم مسرحيات هزلية إلى مختلف المجلات والصحف باسم مستعار هو "بوز". ونُشرت أولى أقاصيصه في كتابه الأول عام ١٨٣٦، اسكتشات بقلم بوز.

وفي تلك الأثناء أغرم بفتاة، كان أبوها مدير بنك، وبعد عامين من الأحلام تحطم قلبه، وهذه الفتاة هي التي صورها في روايته «ديفيد كوبر

فيلد» باسم دورا، وقال فيما بعد إن معظم الناس لا يمكن أن يتصوروا مبلغ هيامه الشديد بها، ولم يلتقيا إلا بعد ذلك بسنوات طوال، وقد صار ديكنز من أعلام زمانه، بينما غدت تلك الفتاة زوجة بدينة غبية ذهب عنها كل سحر وجاذبية، فاستخدمها نموذجاً في روايته "الصغيرة دوريت".

بعد عام تقريباً من العمل في الصحافة شرع ديكنز يكتب سلسلة من الصور القلمية للحياة في لندن، نشرتها له بعض المجلات الأدبية، إلى أن كتب روايته التي دفعت به إلى الأضواء وهي رواية «أوراق مستر بيكويك» ثم أصدر عام ١٨٣٨ روايته «أوليفر تويست» التي حفلت بالظلم الاجتماعي ورصد أحوال الملاجئ في بريطانيا، وفيما بعد سيرحل إلى أمريكا وكندا للقيام بجولة كبرى لم تسفر عن شيء أو مودة بينه وبين الأمريكيين، الذين كانوا ينشرون كتبه على نطاق واسع، من غير أن يفكروا في أداء شيء من الحقوق المالية إلى المؤلف، وبعد عودته نشر قصة «مارتن تشازلويت» سنة ١٨٤٣، تتناول قصة جريمة قتل تفيض بالسخرية والتعقد، وتفصح عما تركته أمريكا في نفسه من آثار سيئة.

ثم ظهرت رواية «ديفيد كوبر فيلد» سنة ١٨٥٠ وبعدها بثلاثة أعوام نشر روايته «البيت الكئيب» ثم «أوقات عصيبة» التي تدور حول مشكلة التفكير الثوري في المجتمع الانجليزي في عصر نشأة الصناعة الكبرى، واحتدام المشكلات بين نقابات العمال وأصحاب المصانع، إلى أن ظهرت سنة ١٨٥٩ «قصة مدينتين» وهي رواية تاريخية لم تزل من أهم النصوص الأدبية التي تقرر على المدارس الثانوية والعليا وهي ختام مرحلة نضجه.

وكان ديكنز قد تزوّج من كاثرين ديكنز سنة ١٨٣٦ وأنجبت له عشرة أولاد، لكن هذه العلاقة انتهت عام ١٨٥٨ حينما طلب تشارلز الانفصال عن زوجته التي وصفها في إحدى الرسائل بأنها "أم غير كفؤة وتعاني من بعض الاضطرابات العقلية".. كذلك تورَّط ديكنز في علاقة غرامية مع الممثلة "ألن ترنان" التي تعرّف عليها سنة ١٨٥٨، وكانت آنذاك في السابعة عشرة من عمرها.

ورغم ما بلغه من ثراء ومجد، فقد ظلّ إنسانا بسيطا متواضعا، ولشدة تواضعه، كانت وصيته قبل وفاته أن يدفن في كاتدرائية روتشستر البسيطة بعيداً عن أنظار العالم، ورغم ذلك دفن في ركن الشعراء في وستمنستر آبي الشهير.

وكان ديكنز قد تعرض في عام ١٨٦٥، لحادث قطار ولم يتعافَ منه أبدًا، وفي التاسع من يونيو عام ١٨٧٠، أُصيب بسكتة دماغية، وتوفي بعدها عن عمر ناهز الثامنة والخمسين، في جادس هيل، بلدته الريفية في إقليم كينت الإنجليزي. قبل أن ينهي آخر أعماله "لغز ادرين درود"، وقد دفن في وستمنستر مع عظماء إنجلترا، وأعلن الحداد الرسمي عليه.

صبحي سالم

الفصل الأول

حدث أن وُلدت في منتصف ليلة جمعة، فقد اقترنت أولى دقات الساعة بصرختي الأولى على الأرض، وقد استنتجت ثرثرة الجيران من ذلك شيئين: أحدهما أنني سأكون شقيا في دنياي، والآخر أن رؤية الأشباح ستكون من حظي في كل مناسبة.

وُلدت في بلدة "بلندرستون" بمقاطعة سافولك. وقد تفتحت عيناي على نور الدنيا بعد ستة أشهر من اليوم الذي أغمضت فيه عينا أبي إلى الأبد!..

وفيما عدا أمي لم يكن بين أفراد أسرتي من يستحق الذكر سوى عمة لأبي تدعى "تروتفورد" أو "بتسي"، كانت قد انفصلت عن زوجها، وتوفى هو في الهند بعد ذلك فلم تحزن كثيرا لوفاته، بل استردت اسمها الأصلي الذي كانت تعرف به قبل الزواج، واشترت بيتا صغيرا عتيقا في قرية تُطل على البحر، حيث عاشت في عزلة كاملة.

وكانت العمة "بتسي" تميل إلى أبي، لكنها بعد زواجه نفرت منه، وانقطعت عن رؤيته بحجة أنه تزوج "دمية صغيرة" ومع ذلك، ظهرت فجأة قبيل مولدي وقالت لها أمي في خجل: "لعل المولود لا يكون أنثى".

فقاطعتها العمة "بتسي" قائلة في حدة: "لا تعارضيني أيتها الطفلة، إنني أعني ما أقول، وعندي إحساس خفي ينبئ بأنها ستكون أنثى. وعلى هذا سأكون عرابتها، وسيكون اسمها "بتسي تروتفورد كوبرفيلد"، ولما

أيقنت أن إحساسها الخفي قد خدعها، فجئت أنا بدلا من الطفلة التي تنبأت بها، هرعت إلى قبعتها فارتدتها دون أن تنبس بكلمة، وخرجت معتزمة ألا تعود مرة أخرى!

وهكذا لا أملك من طفولتي الباكرة غير ذكرى مخلوقتين فقط، هما: أمي بشعرها الأشقر الجميل وروعة شبابها و"بيجوتي" خادمتنا المحرومة من كل جمال.. ولاشك أن خديها المكورين الأحمرين ما كانا لينجوان من مناقير الطيور باعتبار أنهما تفاحتان: لولا أنه كان هناك بجانبهما ما يفزع الوحوش لا الطيور وحدها، أعني عينيها السوداوين.

وكان أول ما ارتسم بعد ذلك في ذاكرتي، منزلنا الذي ولدت فيه، بما اشتمل عليه من برج الحمام الخالي من الحمام، وغرفة الكلاب المقفرة من الكلاب، ثم الفناء المليئ بالدجاج والأوز ومازلت أذكر حتى الآن مطبخ "بيجوتي" في الطابق الأرضي، والمخزن الصغير المظلم المجاور له، حيث كانت تفوح روائح الصابون والفلفل والشمع والبن.. ثم ذلك الممر الذي كان يبدو لي طويلا بلا نهاية.

بدت أمي عند دخولها أجمل ما تكون مظهرا، ولم تكن وحدها، فقد دخل معها رجل ذو شعر أسود جميل، عرفت لأول وهلة أنه هو الذي رأيته لأول مرة يوم الأحد السابق، حين زرته مع أمي في مكتبه، وبعد أن قبلتني أمي، اقترب مني هو أيضا، وربت على رأسي في حركة ودية.. لكنني أبعدت يده في شئ من العنف وصاحت بي أمي وقد أحمر وجهها: "أوه، دافي".. ثم التفتت إلى الرجل واعتذرت له نيابة عني،

وشكرته على تجشمه عناء مرافقتها إلى البيت.. وبعد أن تصافحا وهما ينظران إلي قال لي الرجل:

– ألا ترغب في أن تقول لي مساء الخير؟

فقلت له دون اقتناع: "مساء الخير" وهنا مد الرجل يده وقال لي متلطفا: "حسنا. فلنكن صديقين.. ولنتصافح"، وكانت يدي اليمنى في يد أمي، فمددت له يدي اليسرى في غير اكتراث، لكنه ضحك وقال: "هذه ليست اليد التي يصافح بها الناس". وسارعت أمي فمدت يدي اليمنى لأصافحه بها، لكن سحبتها متبرما .. وقال الرجل ليتدارك حرج الموقف: "لا بأس.. أنت مع ذلك ولد ظريف". ثم ابتعد منصرفا. وحينما بلغ نهاية الحديقة، التفت وحدجني بنظرة شزراء، وظلت بيجوتي واقفة في مكانها بلا حراك، بينما مضت أمي في غنائها الطروب.. وغلبني النعاس وحين أفقت من نومي، وجدت المرأتين تبكيان وهما تتبادلان عبارات تمتزج فيها الحدة بالرقة، ميزت منها هذه الأقوال المقتضبة: "شخص لا يمكن أن يحبه كوبرفيلد".. و"آداب السلوك".. و"الإعجاب".. الخ.. ثم جرت أمي واحتضنتني بين ذراعيها في انفعال وهي تغمغم: "آه يا كنزي الغالي.. أحقا أني كنت يوما أما قاسية كما تزعم بيجوتي؟". ثم عادت المرأتان إلى البكاء، فلم أستطع إلا أن أشاركهما فيه.

وفي الأيام التالية رأيت الرجل ذا الشعر الأسود مرات كثيرة، وفي كل مرة كنت أظهر له الجفاء.. وعلمت أن اسمه "مستر مردستون"، واعتدت أن أراه يتدخل في شئوننا العائلية أكثر فأكثر كل يوم. لكن

رفقته منحتني بعض متع طيبة، منها أنه رأى يوما أن يجلسني على ظهر جواد أمامه ويمضي بي في نزهة طويلة عدت منها مبتهجا، وسُرت أمي حين قلت لها إنني سمعت مستر مردستون يقول عنها في حديث له مع صديق: "مدام كوبرفيلد الحسناء.. الأرملة الصغيرة الساحرة".. ثم أوصتني أمي قائلة وقد احمرت وجنتاها من الغبطة: "إياك أن تذكر شيئا من ذلك لبيجوتي".

وبعد نحو شهرين، خرجت أمي من المنزل ذات ليلة وتركتني وحيدا مرة أخرى مع بيجوتي التي قالت لي فجأة:

– هل تحب أن تأتي معي لقضاء أسبوعين عند أخي في يارموث؟

فسألتها: "هل أخوك شخص ظريف؟"

وعندئذ صاحت قائلة: "لا يوجد من هو أظرف منه، وعلاوة على ذلك، سترى هناك البحر والسفن والصيادين والميناء وغيرها". وإزاء هذه المجموعة من المتع الرائعة التي جعلتها بيجوتي تحت تصرفي قلت لها: "إن أمي قد لا تسمح بذهابي".

فقالت: "أراهن بجنيه كامل إنها لن تمانع. وإذا أردت فسأفاتحها في الأمر عقب عودتها".

فقلت لها: "حسنا ولكن ماذا تفعل هي بعد أن تتركها وحدها؟".

فقالت: "لا تقلق.. أنها سوف تذهب خلال هذين الأسبوعين عند مسز جريبر حيث تلتقي بمجموعة كبيرة من الأصدقاء"

ولم يكن ثمة سبب لأن أعارض وقد وافقت أمي عند عودتها على الفكرة، فعشت منذ تلك اللحظة أياما في شبه لهفة محمومة على الرحيل، واحسرتاه .. إنني حين غادرت البيت الذي عشت فيه أياما سعيدة، لم يخطر ببالي قط أني أودع ذلك كله إلى الأبد.. على أني حينما ركبت العربة، وعانقتني أمي مرة أخرى بقوة، تملكني شعور بالتأثر العميق، فأخذت في البكاء. كما بكت أمي بدورها وأحسست بقلبها ينبض في تجاوب مع قلبي، وأذكر أن أمي المسكينة جرت خلف العربة حتى بلغت البوابة في مدخل الحديقة، وهناك طلبت إلى الحوذي أن يتوقف كي تعانقني مرة أخرى..وعندما استأنفنا سيرنا لمحنا مستر مردستون يلحق بأمي.. فأشاحت بيجوتي بوجهها، وقد بدا على قسماتها الكدر والاستياء.

* * *

سافرنا في عربة أحد التجار، فاقتضى الأمر أن نتوقف في الطريق عدة مرات لتسليم أو تسلم طرود البضائع، وحين أشرفنا على "يارموث" كنا نشعر بالتعب الشديد. وبدا لي الإقليم سهلا منبسطا، بحيث لم أستطع تفسير ما يزعمه كتاب الجغرافيا من أن الأرض مستديرة إلا على أساس أن يارموث تقع في أحد القطبين، لكن خيبة أملي انقلبت إلى بهجة وحماسة حين شممت رائحة السمك مختلطة بروائح القار والقنب، ورأيت البحارة يجيئون ويذهبون، والعربات ترتج في سيرها فوق الأحجار.

وقالت لي بيجوتي: "إن" يارموث "معروفة بأنها أجمل بقاع الدنيا"

ثم أشارت إلى فتى فارع الطول قوي البنية، ذي وجه شبيه بوجه الطفل، تحيط به خصلات من الشعر الأشقر وقالت لي: "هذا هو هام ابن أخي"، وكان "هام" يرتدي سترة من التيل، وبنطلونا من قماش مقوى يكاد يقف من تلقاء نفسه ولو لم يكن بداخله إنسان.. وتقدم الفتى نحونا وحياني كما لو كان يعرفني من قبل، ثم حملني فوق كتفيه، وحمل إحدى حقائبنا في يده، وتقدمنا عبر الأرصفة في الطريق إلى الشاطئ.. وهناك التفت إلي قائلا: "هذا هو مسكننا يا مستر دافي"، فتلفت حولي في جميع الاتجاهات، دون أن أرى أثرا للمنزل.. لم أر غير زورق قديم رابض في فجوة من الأرض، في أعلاه مدخنة من الحديد يخرج منها دخان كثيف. فسألته:

– أهو هذا الشئ الذي يشبه السفينة؟

– إنه هو يا مستر دافي!

ولو عرض علي ساعتها أن أسكن قصر "علاء الدين" السحري لما كنت سررت أكثر من سروري بسكني في ذلك الزورق، الذي فتح في أحد جانبيه باب صغير، وجعل له سقف، وفيه نوافذ صغيرة.. وقد أعجبني داخله كما أعجبني ظاهره، إذ كان نظيفا جميلا، تتوسطه منضدة من الخشب العتيق، وأقيم حوله سياج أكثر منه قدما تبدو أخشابه وكأنها كانت في الأصل صندوقا أو خزانة ثياب.. وكانت تتناثر في أرجاء المكان صور ذات ألوان زاهية، و صنارات لصيد السمك تمتاز بأعوادها الطويلة المتينة، وأعجبني أكثر من ذلك أنهم اختصوني بغرفة صغيرة،

أدخلتني إليها بيجوتي في مؤخر الزورق، وكان بها سرير يناسب طولي عليه غطاء في بياض الثلج، وكذلك كان كل ما في الغرفة صغيرا مثلي: المرآة ذات الإطار المصنوع من قواقع المحار، والنافذة التي لا يزيد ارتفاعها على قامتي، والمنضدة التي وضعت عليها آنية زرقاء مليئة بالزهر والورود، وملأت خياشيمي رائحة "سرطان البحر" وغيره من أنواع الأسماك الموضوعة في صندوق خشبي معلق خارج الزورق يتاجر فيها شقيق بيجوتي كما علمت منها.

واستقبلتنا عجوز ضئيلة الجسم، تنم قسماتها عن جمال غابر، وكانت معها فتاة صغيرة بارعة الحسن تضع في رقبتها عقدا من الأصداف الزرقاء، لم أكد أشرع في عناقها حتى أسرعت بالعدو واختبأت في أحد الأركان، وبعد أن تناولنا غداء من السمك المسلوق والزبد والبطاطس، بالإضافة إلى قدح من البيرة، ظهر رب البيت. وقال لي: "إنني مسرور بأن أراك يا سيدي. إنك قد تجدنا من الطراز العتيق لكننا نتفانى في خدمتك"

فأكدت له أنني سعيد بوجودي في هذا المنزل الجميل، واستطرد قائلا: "كيف حال والدتك يا سيدي؟"

فأجبته بأنها في أتم صحة، ثم رأيت من الأدب أن أبلغه تحياتها وإن لم تحملني أي شئ منها إليه. وإذ ذاك قال لي: "إني لشاكر لها يا سيدي، وإذا راق لك المقام هنا مع أختي، ومع هام وإميلي الصغيرة، فسيكون من دواعي فخرنا".

وبعد أن تناولنا شاي العصر، دخلت من جديد في حديث معه،

فعلمت أن "هام" ليس ولده بل هو ابن أخيه "جو" الذي مات غرقا في البحيرة.. وأن "إميلي" ابنة شقيق زوجته "توم"، وقد مات غرقا أيضا. أما العجوز التي استقبلتنا فهي أرملة شريكه السابق "جوميدج" الذي كان بحارا ومات في فقر مدقع. ونمت على ضجيج الريح التي أخافتني في البداية لكنه لم يمنعني من أن أقضي ليلة طيبة، وفي صباح اليوم التالي نهضت ومضيت مع الصغيرة إميلي لجمع القواقع والأصداف من الشاطئ. وكانت إميلي قد اطمأنت إلي ولم تعد تخافني، وقالت لي أنها تخاف البحر الذي سلبها أباها، ومن ثم حدثتها أنا عن أبي أيضا، وغبطتني على أني أعرف لأبي قبرا، بينما هي لا تعرف قبرا لأبيها غير لجة البحر ثم أضافت إميلي وهي تلعب بالأصداف: "كذلك كان أبوك سيدا، كما أن أمك سيدة.. أما أنا فكان أبي صيادا، وأمي ابنة صياد، وعمي "دان" يعمل صيادا، فقلت لها: "إن عمك "دان يبدو طيبا"، فقالت: "لو كنت سيدة كبيرة لأعطيته معطفا أزرق ذا أزرار من الماس، وصديرية من القطيفة الحمراء، وقبعة، وساعة كبيرة من الذهب، وغليونا من الفضة، وكيسا للنقود الفضية"، وحاولت أن أتصور منظر الرجل في هذه التشكيلة العجيبة، وقررت الاحتفاظ بتصوراتي لنفسي.. ثم سألت إميلي:

– أتحبين أن تكوني سيدة كبيرة؟

فنظرت إلي، وأومأت برأسها موافقة وهي تضحك، ثم قالت:

– نعم. إنني أحب ذلك.. وعندئذ يصير عمي دان، كما يصير هام أيضا من السادة.. وما كنا لنخشى هبوب العاصفة، بل يكون في وسعنا

أن نساعد النوتية الفقراء الذين يتضررون بسبب العاصفة!

وكنا نسير في تلك اللحظة فوق رصيف عتيق من الخشب، قريب من الشاطئ. فقلت لأميلي: "إنك لا تخشين البحر بالدرجة التي تظهرينها"، فقالت: "إنني لا أخشاه من أجل نفسي". ثم انطلقت تعدو فوق الجسر وكان يمتد مسافة في قلب الماء على ارتفاع قليل من أمواجه. وخيل إلي وهي تقف في مواجهة البحر أنها ستقذف بنفسها في لجته، فأطلقت صرخة عالية.. فعادت وهي تضحك وتسخر من خوفي.

مر الأسبوعان بسرعة، برغم أن وجوه تسليتي لم تتغير خلالها. ولم أستطع مغالبة شعوري بالأسى حين واجهت فكرة ترك غرفتي الصغيرة ومضيفي، وخاصة الصغيرة إميلي.. وقد رافقتنا حتى باب العربة ووعدتنا بأن تكتب إلينا. وفي لحظة افتراقنا أحسست – لأول مرة – بفراغ كبير في قلبي!.. ومع ذلك كنت كلما اقتربت من مسكني القديم يزداد شعوري بأنه هو عشي الحقيقي، وبأن صديقتي المفضلة ليست سوى أمي! ولم أكد أصل بالعربة إلى باب بيتنا حتى قفزت منها ودموع الفرح في عيني، لكي أرتمي بين ذراعي أمي، ولكن شد ما كان ألمي حين تبينت أن التي خفت لاستقبالنا لم تكن أمي، بل خادمة غريبة لا عهد لي بها!.. وصحت على الفور:

– ماذا؟ ألم تعد أمي بعد يا بيجوتي؟

فقالت لي بيجوتي: "بل عادت يا مستر دافي.. انتظر لحظة، فإنني أريد أن أقول لك شيئا".

وقادتني بيجوتي إلى المطبخ، فهتفت بها مرتاعا: "بيجوتي، ماذا حدث؟"

فقالت لي: "لا شئ".. ولكنني صحت بها من جديد: "بل هناك شئ بالتأكيد.. أين أمي؟. ولماذا لم تخرج لاستقبالنا، ولماذا دخلنا إلى هنا؟"

فقالت لي هامسة: "هدئ من روعك يا حبيبي".. وكان تأثري قد بلغ أشده فصحت والدموع تطفر من عيني: "إنها لم تمت يا بيجوتي؟!". وإذ ذاك أخذتني بين ذراعيها وهتفت بأعلى صوتها: "كلا. لا شئ من ذلك، وإنما الواقع أنه كان يجب علي أن أصارحك بالأمر منذ زمن، لكنني لم أجد الفرصة المناسبة "وسألتها مدهوشا: "تصارحينني بماذا؟". فأجابت وهي تتكلف الهدوء: "لقد صار لك أب جديد" وقبل أن أفيق من دهشتي، أخذت بيجوتي بيدي وهي تقول: "نعم يا حبيبي صار لك أب جديد تعال لتراه" ولكني بقيت واقفا في مكاني وقلت لها: "لا أريد أن أراه"، فقالت لي ملاطفة: "لكن أمك هناك.. وأنت ولا شك تريد أن تراها".

وتبعتها إلى الصالون الكبير، وهناك بالقرب من المدفأة رأيت أمي جالسة في جانب، ومستر مردستون في الجانب الآخر.. ونهضت أمي مسرعة، لكنها تقدمت نحوي في خطي بطيئة، وكأنها لا تجرؤ على مواجهتي!.. بينما قال لها مستر مردستون وهو يمد لي يده:

– عزيزتي كلارا.. يجب أن تتمالكي نفسك!

حييته في فتور، ثم عانقت أمي وأنا أبكي تأثرا، فقبلتني.. ثم لاذت

بالصمت. وأحسست –دون أن أرى– أن مستر مردستون ينظر إلينا، فأدرت عيني نحو النافذة، ثم انسحبت من الصالون بأسرع ما استطعت!

إن كل شئ قد تغير في البيت، وعرفتي صارت في الطرف الآخر منه، فبدا لي كأنني في منزل غريب! وهبطت إلى الفناء.. واقتربت من حجرة الكلاب، التي عهدتها خاوية دائما، لكنني تراجعت على الفور فقد رأيت فيها كلبا ضخما ذا فم واسع ينم عن القوة، ونظرة قاسية مخيفة – شبيهة بنظرة "الآخر" وفمه.

* * *

لذت بغرفتي الجديدة وأنا في حال من الكآبة لا توصف، وتركت نفسي أتهالك على أحد المقاعد حيث ظللت مستغرقا في أفكاري المبلبلة التي أورثتني هما ونكدا يبلغان درجة اليأس. ثم استلقيت على سريري ولففت جسمي بطرف اللحاف وأخذت أنتحب، حتى هدني التعب فأغفيت..وفي الصباح استيقظت على صوت يقول: "هذا هو..".. وإذا أمي وبيجوتي بالقرب مني، وسألتني أمي: "دافيد، ماذا بك؟" ووجدت سؤالها غريبا فأجبتها: "لا شئ!" لكنها عادت تستفسر ملهوفة: "دافيد.. ولدي"، وتأثرت من لهجتها فأخفيت وجهي في الغطاء وأطلقت العنان لدموعي.. فصاحت في انفعال:

– إن هذا من ايحائك يا بيجوتي، أنت التي حرضت هذا الصبي ضدي و ضد الشخص الذي أحبه.

فرفعت بيجوتي المسكينة يديها وعينها إلى السماء وقالت:

– فليغفر الله لك يا مدام كوبرفيلد، وعسى ألا تلجئك الظروف إلى الندم على ما تقولين!

وصاحت أمي مرة أخرى وهي توجه غضبتها إلي:

– يا لك من صبي قاسي القلب! هل ينبغي أن تفسد حياتي على هذا النحو؟!

وفي تلك اللحظة أحسست لمسة يد أدركت أنها ليست يد أمي ولا يد بيجوتي.. فقفزت من سريري واقفا على قدمي.. وكانت يد مستر مردستون، فخاطب والدتي قائلا:

– ما معنى هذا؟ كلارا.. حبيبتي.. هل نسيت؟ لابد من استعمال الحزم!

فقالت له: "كنت أنوي ذلك يا ادوارد، ولكن.. لقد فوجئت، إنه أمر عسير حقا.. أليس كذلك؟"

وإذ ذاك جذبها إليه، وهمس في أذنها كلمات، ثم عانقها. ثم استطرد فقال لها:

– انزلي يا حبيبتي.. أما دافيد وأنا فسننزل معا بعد لحظة

ولم تكد أمي تخرج من الغرفة حتى التفت مستر مردستون إلى بيجوتي قائلا:

– ألا تعرفين يا ابنتي اسم سيدتك؟

– إنني أخدمها منذ زمن طويل فكيف لا أعرفه؟

– إنني سمعتك منذ برهة تنادينها باسم غير اسمها. إنها تخصني أنا الآن.. فاحرصي على ألا تنسى ذلك!

واتجهت بيجوتي صوب الباب بعد أن ألقت على نظرة قلقة.. وإذ ذاك جلس مستر مردستون وأوقفني في مواجهته، ثم نظر إلي نظرة صارمة استقرت في عيني مباشرة.. وقال وهو يضغط شفتيه:

– دافيد.. هل تعلم كيف أعامل الحصان أو الكلب العنيد؟ إنني أضربه!

وهنا أحسست قلبي يقفز في صدري بشدة، حتى إني لهثت.. بينما استطرد هو فقال: "إنني أخضعه بأن أقول لنفسي: يجب أن أروض هذا المخلوق، ولو اقتضى الأمر أن ينزف كل دمه!"

ثم ركز نظراته الصارمة على وجهي واستطرد قائلا: "ما هذه الآثار التي على وجهك؟"

وكنت أعلم جيدا أنها آثار دموعي، لكنني آثرت الموت جلدا بالسياط على أن أعترف له بالحقيقة.. وزعمت أنها آثار السفر، فارتسمت على شفتيه ابتسامته الصفراء وقال لي:

– إنك أذكى جدا من مستوى سنك، وأعتقد أنك فهمتني، اغسل وجهك وانزل معي

ورأيت أنني يجب أن أطيعه وإلا عرضت نفسي للضرب، فأطعته.. وحين وصلنا إلى الصالون قال موجها كلامه إلى أمي:

– كلارا.. حبيبتي.. لن تصادفك مصاعب بعد الآن!

وفي الليلة ذاتها وصلت إلى المنزل أخت مستر مردستون، وكانت تشبهه، وعلمت أن إقامتها عندنا ستكون دائمة، بحجة معاونة أمي.. وأنها على أتم استعداد –مثل شقيقها– لتقديم الدليل على أنها لا ينقصها ذلك الحزم الذي يذلل به عناد الخيل والكلاب، وفي انتظار اتخاذ قرار بشأن المعهد الذي التحق بالقسم الداخلي فيه، اتفق مستر مردستون وأخته على أن أدرس في البيت، وعلى أن يتوليا بالنيابة عن والدتي أمر الإشراف على دراستي!

كان وجودهما وحده في المنزل كافيا لشل ذهني ولساني وهكذا بعد أن كنت من قبلهما أدرس بشغف وسهوله، صار الدرس من أشق الأمور لنفسي ولم تمض ستة أشهر على هذه الحال حتى غدوت فتى بليدا عبوس الوجه دائم الذهول والاطراق.

وفي ذات صباح كنت أهم بدخول الصالون حاملا كتبي لكي أستذكر دروسي، فرأيت أمي واقفة ترمق مستر مردستون بنظرة انزعاج، بينما كان هو منهمكا في وضع شئ مستدير في أقصى عصا بيده، ثم راح يلوح بها في الهواء قائلا:

– أؤكد لك يا كلارا أنني أنا نفسي مدين إلى حد كبير لجلدي بالسوط وأنا صبي صغير.

وأمنت شقيقته على كلامه قائلة: "هذا صحيح".. وأدركت أنني موضوع هذه المناقشة، ولاسيما من النظرة التي سلطها علي مستر مردستون.. ثم قال لي:

– الآن يا دافيد، يحسن أن نطبق هذه الطريقة عليك اليوم قبل الغد!

وبعد أن لوح في الهواء بالسوط حتى ملأ صفيره أذني، وضعه بجانبه، وفتح كتابا، وكان ذلك كافيا لأن يبدد من ذهني كل أثر للمعلومات التي كانت فيه.. فقد صرت تحت وقر نظرات مستر مردستون وشقيقته أشبه بالطائر الصغير المسكين وقد حاصرته نظرات ثعبانين خطرين!

وطوى الرجل الكتاب، وفتح آخر، ثم آخر.. حتى فرغ من امتحاني في جميع المواد، ولكن دون جدوى، فقد محا الذعر الدروس من رأسي فلم أجب عن سؤال واحد.. وآلم أمي أن تراني فاشلا، فانخرطت في البكاء.. وإذ ذاك هتفت بها مس مردستون في لهجة آمرة:

– كلارا

فأجابت أمي في لهجة اعتذار:

– أحس أنني لست بخير يا عزيزتي جين!

وأردف مستر مردستون:

– لا نستطيع يا جين أن نتطلب من كلارا أن تحتمل في حزم وتجلد خيبة الأمل التي يسببها لها دافيد اليوم ثم أضاف وهو يدفعني نحو الباب: "اصعد معي يا فتى إلى الطابق العلوي!"

لكن أمي جاءت تعدو خلفنا، فصاحت بها س مردستون:

– كلارا.. هل جننت؟

ورأيت أمي المسكينة تسد أذنيها وسمعتها تنشج بالبكاء.. بينما قادني مستر مردستون أمامه على السلم بصرامة الجلاد الذي ينفذ حكما لصالح العدالة.. وأعتقد أنه كان يجد لذة في مهمته.. ولم يكد يوصد علينا باب حجرتي حتى لوى رأسي بشدة تحت ذراعه، فصرخت من الألم: "سيدي، أرجوك.. لا تضربني. لقد حاولت كثيرا أن أحفظ دروسي، لكنني لا أستطيع ذلك حين تكون أنت وأختك في المكان.. لا أستطيع"

– حقا يا دافيد؟ سوف نرى.

وأمسكني باحدى يديه، بينما انهالت علي يده الأخرى بالسوط في عنف.. لكنه توقف فجأة حين أهويت بأسناني على اليد التي أمسكتني فعضضتها، وعند هذا جاوز غضبه كل حد، ولعله كان سيضربني حتى الموت لو لم تصعد أمي وبيجوتي إلينا صائحتين باكيتين، فخرج وساقهما أمامه إلى الطابق الأسفل، وبقيت وحدي محطما، ذليلا، مرتاعا مما فعلت.. وأخذت أتصور ما سيحدث لي، وخيل لي أنني سأرسل إلى السجن، بل خيل لي أني قد أشنق هناك. وحبست في غرفتي خمسة أيام، لم أر فيها سوى الآنسة مردستون التي كانت تحضر لي طعامي.. وفي الليلة الخامسة أيقظني من كابوس أحلامي المزعجة صوت همس على بابي. كان أحدهم ينطق باسمي.. فاعتدلت جالسا في سريري. وقلت هامسا: "أهذه أنت يا بيجوتي؟" ومددت إليها ذراعي في الظلام، لكني لم ألبث أن تنبهت إلى أن الصوت يأتيني من وراء الباب، فقفزت

من فراشي ومضيت نحو الباب في خطي الثعلب ثم همست: "أهذه أنت يا عزيزتي بيجوتي؟"

– نعم يا صغيري. لا تحدث صوتا وإلا سمعتنا "القطة".

وأدركت أنها تعني "بالقطة" الآنسة مردستون، فسألتها في صوت غير مسموع: "كيف حال أمي؟ أهي غاضبة مني؟"

– كلا!. ولكنهم يعتزمون إرسالك إلى مؤسسة قريبة من لندن، وستسافر صباح اليوم التالي، وتستطيع رؤية والدتك قبل سفرك!

ووعدتني بأن تكتب لي، وكلفتها بأن تبلغ جميع أصدقائي في "يارموث" سلامي الحار، وتخبرهم بأنني لست سيئا كما يبدو من سفري بغير أن أودعهم.. وأخيرا أرسلت لبيجوتي عبر ثقب الباب قبلة ردتها لي بالطريقة نفسها!. وفي صباح اليوم التالي، ساعة الافطار، رأيت أمي شاحبة الوجه محمرة العينين.. وابتدرتني قائلة: "ماذا دهاك يا دافي؟ كيف استطعت أن تؤذي الشخص الذي أحبه؟ حاول أن تصير ولدا طيبا، يجب أن تصلي لكي يجعلك الله كذلك.. أما أنا فقد صفحت عنك، ولكن يؤلمني أن أراك غاضبا" وحاولت عبثا أن أتناول شيئا من الطعام، وكانت أمي ترمقني بنظرها من وقت إلى آخر، ثم تخفض بصرها عند أول نظرة من الآنسة مردستون، وحينما وصلت العربة هتفت الآنسة مردستون بلهجتها المسيطرة: "كلارا!" وأجابت أمي: "ها أنذا آتية يا عزيزتي جين. وداعا يا عزيزي دافي.. إن رحيلك هذا لصالح مستقبلك.. وحين تعود في العطلة سوف تكون ولدا أفضل!"

فكررت الآنسة مردستون صيحتها: كلارا!

– ها أنذا يا عزيزتي جين.. إني أصفح عنك يا ولدي العزيز.. وليباركك الله!

ثم قادتني الآنسة مردستون إلى العربة وهي توصيني بأن أصلح نفسي قبل أن يفوت الأوان..!

الفصل الثاني

كان سائق المركبة التي أوصلتني إلى لندن هو نفسه السائق الذي أوصلنا – أنا وأمي وبيجوتي – إلى يارموث.. وكان مفروضا أن ينتظرني لدى وصولي إلى العاصمة شخص يتولى توصيلي إلى المؤسسة التي اختارها لي مستر مردستون، ولكن شدما كانت خيبة أملي حين نزلت من العربة فلم أجد أحدا في انتظاري!. وبعد أن قضيت لحظات جالسا على ميزان البضائع، منزعجا حائرا، أبصرت شخصا يرتدي ملابس قصيرة جدا مقبلا نحوي.. وزاد في رثاثة مظهره خداه الغائران وذقنه غير الحليق، وقدم لي نفسه بوصفه "مستر ميل" المدرس في مؤسسة "سالم هاوس" – التي انتقاها لي زوج أمي– ثم صحبني إلى العربة التي ستنقلني خلال المرحلة الأخيرة من رحلتي.

واستيقظت من نوم عميق في هذه العربة، حين وقفت أمام بوابة عليها لوحة تحمل اسم "سالم هاوس".. وفتح لنا البوابة رجل ذو ساق خشبية ورأس يشبه رأس الثور.. فدخلنا إلى فناء تحيط به أبنية قديمة تحمل طابعا مقبضا حزينا، زاد في رهبته السكون الذي ساد المكان، حتى خطر ببالي أن أهله ليسوا على قيد الحياة! على أن مستر ميل أوضح لي الأمر فقال: "إن التلاميذ ما زالوا في عطلة، وناظر المدرسة مستر كريكل متغيب مع أسرته". فأدركت أنني أرسلت إلى المدرسة أثناء العطلة إمعانا في عقابي، ثم قادني مستر "ميل" إلى صالة وقع نظري فيها

على لافتة تحمل هذه الكلمات: "خذوا حذركم منه، فإنه يعض"، وإذ ذاك تراجعت خطوة إلى الوراء، وأنا أتوقع أن يبرز أمامي الحيوان الذي تعنيه اللافتة، وكنت قد استنتجت أنه كلب.. لكن الأستاذ دهش لحركتي وسألني عن سر فزعي، فقلت له:

– لا تؤاخذني يا سيدي.. فإنني خائف من الكلب!

فقال الأستاذ في لهجة الجاد: "إنه ليس كلبا.. بل هو صبي اسمه كوبرفيلد.. إنني مكلف أن أثبت هذه اللافتة على ظهرك. وإنه ليؤسفني حقا أن نبدأ عهدنا معك بهذه المعاملة، لكنني مضطر إلى ذلك" والواقع أن مستر ميل لم يكن قاسيا، فكنا نقضي أوقاتا كثيرة معا، وكنت أخافه في البداية، لأنه كان يكلم نفسه وهو يشير بأصبعه ويصر على أسنانه، لكنني لم ألبث أن اعتدت هذه الحركات الغريبة!

وذات يوم جميل، علمت بوصول مستر كريكل ناظر المؤسسة، وكان علي أن أمثل أمامه في الليلة ذاتها. وكان رجلا بدين الجسم حاد الطبع، ذا عينين ينبعث منهما اللهب، وأنف قصير، وذقن ينم عن القسوة والصرامة، وجبين تبرز عليه أوردة دموية غليظة! كان استقباله لي بعيدا عن أن يكون مشجعا. وقد أفهمني بوضوح وهو يعرك أذني بشدة أنه يعرف ويقدر زوج أمي، وأنه هو نفسه له طباع التتار وعزيمتهم، ولا يتردد في التضحية بدمه ولحمه في سبيل تأدية واجبه.. كل ذلك قاله لي بصوت صارم، ثم قام الرجل ذو الساق الخشبية بعد ذلك بدور المفسر، فسبب لي هذا اضطرابا وبلبلة، وبرغم ذلك وجدت الجرأة على أن أقول: "أرجو يا سيدي.. إذا كان هذا ممكنا.. أن

ترفعوا من فوق ظهري هذه اللافتة"، وعند ذلك هم مستر كريكل بالهجوم علي بحركة أفزعتني واضطرتني إلى التراجع بسرعة كي أتجنبها.. ثم انطلقت أعدو في اتجاه غرفتي، وهناك أويت إلى فراشي فورا وأنا أرتعد كريشة في مهب الريح، وكان أول تلميذ وقع بصره، في اليوم التالي، فتى مرح اسمه "ترادل" أفلح بمرحه في أن يخفف وقع الأمر على نفسي، إذ فرض علي أكثر زملائه أن يكتفوا بالضحك من بعيد وأن يحرصوا على ألا يجرحوا شعوري. ولكن سخرية الآخرين وصياحهم في وجهي مقلدين نباح الكلاب، جعلاني أذرف الدموع بعض الوقت، لفرط شعوري بالخجل والمهانة.. على أن المسألة في مجموعها مرت بسلام، وكانت أهون كثيرا مما توقعت، وقد أدركت أن التلميذ الأول في نظر الجميع، علما وثقافة وحظوة لدى الأساتذة، هو "ستيرفورث".. وكان يكبرني بستة أعوام، وسرني أن نظرته لي كانت مفعمة بالإشفاق. ثم اقترح على أن أستغل النقود التي في حوزتي لإقامة حفلة استقبال صغيرة لزملائي.. فقبلت مرحبا، وأقمت الحفلة في عنبر النوم، وكانت قائمة الطعام تشمل الفاكهة، والجاتوه المحشو باللوز، ونبيذ العنب الطازج.. وقبل "ستير فورث" أن يحضرها، وما زلت أذكر جمعنا وقد التأم حول فراشي، وجلس أكثرنا على الأرض، مصغين لآراء ستيرفورث في المدرسة والمدرسين.. وكان مستر كريكل على حق فيما قال عن نفسه من أن له طباع التتار، فلقد كان مثلهم في وحشيته، أما مستر "ميل" فلم يكن بالرجل السئ، وقد عرف بين التلاميذ بأنه ابن امرأة مسكينة. على أن "ستيرفورث" لم يكن يعبأ بالناظر. ولما بدأ المدعوون من التلاميذ ينصرفون كل إلى فراشه، حرص هو على أن يبقى معي حيث جلسنا نثرثر بعض الوقت. ثم قال لي أخيرا:

– طابت ليلتك يا صديقي العزيز.. ثق بأني سأسهر على رعايتك من الآن.

فأجبته: "أشكرك.. وسأكون دائما ذاكرا لجميلك"

ثم سألني وهو يتثاءب: "هل لك أخت؟". فلما أجبته بالنفي، أعرب عن أسفه وقال لي: "يا لسوء الحظ لو كان لك أخت لكانت حتما رقيقة جميلة، ذات عينين واسعتين.. ولأسعدني حقا أن أعرفها" ثم كرر تحيتي وانصرف إلى فراشه. وقد فكرت فيه طويلا قبل أن أنام، ورفعت رأسي أكثر من مرة لكي أرى وجهة الجميل يضيئه شعاع من نور القمر، ورأسه متكئا على ذراعه المطوية. لقد كان قوة لا يستهان بها، وما من شئ يمكن أن يفسد في نظري الهالة التي أحطت شخصه بها، وفي اليوم التالي، بدأت الدراسة جدية حقا، ولن أنسى الأثر العميق الذي تركه في نفسي سكون الموت الذي كان يخيم فجأة على الطلبة كلما ظهر مستر كريكل في الفصل، يرافقه ياوره أو ببغاؤه الخاص: الرجل ذو الساق الخشبية! وقال لنا الناظر حين دخل فصلنا: "أيها التلاميذ.. نحن الآن في مستهل النصف الثاني من العام، فاعكفوا على العمل وإني أنذركم بأنني لن أتردد في تطبيق أقسى العقوبات، ولن تأخذني رأفة بأي تلميذ يهمل واجبه" ثم أضاف وهو يقترب مني: "أما أنت فإذا كنت تتقن العض، فإني أتقنه أكثر منك، وهذه عصاي لا شك أنها تتقن العض أيضا، والتجربة خير برهان". ثم أخذ يقرن كل كلمة من كلماته بضربة من عصاه..

وهكذا بدأت عهدي الأول في المؤسسة، على أني لم أكن وحدي في ذلك العقاب، فإن أكثر الصبيان والصغار خاصة، لم ينجوا من عض الناظر أيضا. وقبل أن تنتظم الدراسة كان نصف تلاميذ المدرسة يكون، وكان "ترادل" أحد أولئك الذين شغف كريكل بضربهم، فكان المسكين يعرض نفسه للضرب مرات كثيرة بدلا من المذنبين الحقيقيين، وقد حرص ستيرفورث على استمراره في بسط حمايته علي، ولكنه مع ذلك لم ينجح في تجنيبي قسوة مستر كريكل. وقد بذل أن كل جهده حتى أنقذني من تلك اللافتة المخجلة التي علقت على ظهري، ولكن ذلك جعلني أكثر شعورا بضربات عصا الناظر، كما كان وجودها يضايقه أثناء اضطلاعه بمهمته الممتعة!

وقد تطورت الصداقة التي نشأت بيني وبين ستيرفورث إلى عقد يقضي بأن أقص عليه بعض الحكايات حين يستعصي عليه النوم كعادته كل ليلة، وبأن يشرح لي هو ما استعصى علي فهمه من المسائل. وهكذا استطعت بفضل ستيرفورث أن أحرز بعض التقدم في دراساتي، كما كان لمستر ميل أيضا نصيب في هذا الشأن، وما زلت أحتفظ لهما بذكراهما العاطرة حتى الآن.. وأنه ليحزنني حتى الآن، أنني في ذلك العهد اشتركت في مظاهرة شائنة ضد المستر ميل الطيب القلب. ففي ذات يوم كان مستر كريكل قد اعتكف في حجرته نتيجة وعكة طارئة، فلم يظهر في حجرات الدراسة، وقد أثلج هذا صدور التلاميذ جميعا، وكانت النتيجة المباشرة لغيابه أن ساد المرح جميع الفصول طيلة الصباح رغم التنبيهات المتكررة من جانب الرجل ذي الساق الخشبية، وحين عدنا

إلى الفصول بعد الظهر كي نؤدي بعض الواجبات الإضافية السهلة كنا قد اتفقنا على أن نعمل أي شئ عدا الدروس!..

وفي درس مستر ميل جلس المسكين وقد أسند رأسه المتعب إلى يده المعروقة وانهمك في إجراء بعض العمليات الحسابية، رغم الضجيج المروع التي يسببه التلاميذ الأشقياء، إذ كان أحدهم – مثلا – يغادر مكانه ثم يعود إليه راكضا في جوانب الفصل كالبهلوان، وكان الآخرون لا يكتفون بالضحك بل يأخذ بعضهم في الغناء، وبعضهم في الثرثرة أو الرقص وبلغت الجرأة بأحدهم أن راح يقلد حركات المدرس وهو واقف خلفه من حيث لا يشعر، وفيما نحن كذلك، نهض مستر ميل فجأة، وضرب المنضدة بكتاب في يده ثم صاح بأعلى صوته طالبا منا السكوت. فسكتنا جميعا، ولكن ستيرفورث وحده لم يطع الأمر، وبقي في أقصى الحجرة مستندا إلى الحائط ويداه في جيوبه، واستمر يرسل من فمه صفيرا منغما، وهو يتفرس في وجه مدرسه، وصاح به مستر ميل: "ألا تسكت يا مستر ستيرفورث؟!"

فأجابه ستيرفورث وقد صعد الدم إلى وجهه: "كلا! بل يجب أن تسكت أنت".

وعاد المستر ميل إلى مخاطبته قائلا له: "يحسن أن تجلس أولا يا مستر ستيرفورث".

فرد هذا بقوله: "اجلس أنت.. ولا تتدخل في غير شؤونك!"..

وعلى أثر ذلك ساد الفصل هرج ومرج، وضحكات ساخرة..

فشحب وجه مستر ميل إلى حد أعاد السكون للفصل في ثوان معدودات، بينما استطرد المدرس قائلا:

– إذا كنت تعتقد يا مستر ستيرفورث أنني أجهل تأثيرك في نفوس جميع تلاميذ الفصل، أو أنني لم ألحظ كيف عمدت منذ دقائق إلى تحريض الصغار على إهانتي.. فإنك تكون مخطئا

– إنني لا أكلف نفسي عناء التفكير فيك.. وإذن، لاشك أنك مخطئ في تقديرك!

– إنك تستغل المحاباة التي تنعم بها هنا كي تهين "جنتلمان"..

– أهين ماذا؟! جنتلمان؟!.. أين هو هذا الجنتلمان؟!

وهنا صاح "ترادل" من مكانه قائلا: "هذا كثير يا ستيرفورث، بل هو شئ مخجل حقا!"

ولكن المستر ميل أشار إليه طالبا السكوت، ثم التفت إلى ستير فورث وقال له في كثير من المرارة:

– إن إهانة شخص لم يعتد عليك يوما أو يهاجمك، لهي عمل ينطوي على الجبن!

فرد ستير فورث قائلا له: "للمرة الأولى والأخيرة أقول لك: إنك بمخاطبتي بهذه اللهجة تثبت أنك سفيه!.. ولقد كنت دائما متسولا شحاذا، لكنك في هذه اللحظة تضيف إلى تسولك قحتك أيضا!" ولست أذكر أيهما بدأ برفع يده محاولا أن يضرب الآخر، وإنما أذكر أن

عنصرا غريبا ساد الموقف على أثر ذلك، إذ فوجئنا جميعا بدخول المستر كريكل وجلجل صوته في الفصل وهو يخاطب المدرس قائلا:

– مستر ميل.. أرجو ألا تكون قد نسيت نفسك!

فأجابه هذا وهو يكشف وجهه المرتجف:

– كلا يا سيدي، بل إنني تمالكت نفسي في الوقت المناسب. ولو تذكرتني مبكرا لجنبتني أمورا كثيرة!

وغطى وجهه بيديه مرة أخرى.. فقال الناظر يخاطب التلميذ السليط:

– مستر ستير فورث.. أوضح لي معنى هذا!

فأجاب ستيرفورث بعد تردد: ماذا كان يقصد بكلمة "المحاباة؟!" وتساءل مستر كريكل وقد بدأت أوردة جبهته تقفز وتبرز:

– من الذي تحدث عن المحاباة؟

وأشار ستيرفورث إلى المدرس متحديا، فالتفت الناظر إلى المستر ميل وسأله في غضب ملحوظ: "ماذا عنيت بذلك؟" فأجابه وهو يخفض من صوته: "إنما أردت أن أقول إنه ما من تلميذ يحق له أن يسئ استغلال المحاباة التي يستمتع بها كي يهينني!"

فصاح مستر كريكل وهو يعقد ذراعيه على صدره ويقطب حاجبيه:

– يهينك؟.. عندما تتحدث عن المحاباة لا تنس واجب الاحترام لي، أنا ناظر هذه المؤسسة ورئيسك!

فقال المستر ميل: "أعترف أنني أخطأت، ولكن..". فقطع ستير فورث كلامه قائلا وهو يوجه الخطاب إلى الناظر:

– لقد وصفني أيضا بأنني جبان ووضيع، فذكرت له أنه شحاذ.. وما كنت لأنعته بدوري بهذا النعت لو كنت هادئ الأعصاب. لكنني قلتها ومستعد لتحمل نتائجها، فإنه إذا لم يكن هو نفسه شحاذا فإن أقرب أقربائه شحاذون.. وأمه تعيش من إحسان المحسنين في أحد الملاجئ فليجرؤ على إنكار ذلك إن استطاع!

ونظر مستر ميل إلى ستير فورث في دهشة وامتعاض، بينما كانت عينا الناظر تتنقلان من أحدهما إلى الآخر.. ثم قال للمدرس في غطرسة وسخرية:

– هل تسمع ما يقوله هذا الشاب يا مستر ميل؟.. هيا تفضل بالرد على كلامه أمام التلاميذ جميعا!

وساد المكان هنيهة صمت كصمت القبور، ثم قطعه صوت المستر ميل وهو يقول في هدوء: "هو على حق يا سيدي!.. لقد ذكر الحقيقة!"

– إذن.. هل لك أن تعلن أمام الجميع أنني كنت أجهل هذه الحقيقة؟

– أنت لم تكن تجهل أنني فقير يا سيدي!

– هل تحسب إذن أنني من أجل ذلك عينتك في هذه المؤسسة؟!. كلا يا سيدي!. إنك لتخطئ إذا ظننت نفسك في مدرسة للفقراء!.. والآن أرجو أن تتفضل بالرحيل من هنا بأسرع ما يمكن!

– أحسب أنني سأرحل فورا يا سيدي!

– كما تشاء!

فقال مستر ميل وهو ينظر حواليه: "استودعك الله يا مستر كريكل.. وأنتم جميعا أيها الإخوان!" ،ثم وقع بصره علي بالقرب منه، فوضع يده على كتفي في عطف ظاهر، والتفت إلى ستير فورث قائلا:

– جيمس ستير فورث.. أتمنى ألا تضطرك الظروف يوما إلى أن يحمر وجهك خجلا مما فعلت اليوم!.. ولست أطلب من دنياي أكثر من ألا تجمعك الأيام بي أو بأي شخص يهمني أمره!

ثم وضع يده مرة أخرى على كتفي، بينما تناول باليد الأخرى من الدرج الذي أمامه بضعة الكتب التي تخصه، فوضعها تحت إبطه وغادر حجرة الدراسة.. وعلى أثر خروجه ألقى علينا الناظر خطابا شكر فيه ستير فورث لأنه أنقذ سمعة "مؤسسة سالم". وبعد أن شد على يد البطل مهنئا، طلب منا أن نهتف له ثلاثا. وقد بلغ من جبني أنني اشتركت معهم في هذه المظاهرة الشائنة، وكانت أم ستير فورث أرملة غنية، لا ترفض له طلبا، وقد أعجبنا منه هذا النبل والشهامة، ونظرا إلى قلة خبرتنا بشؤون الحياة فقد حكمنا بأنه كان على حق في تصرفه، ولاسيما حين أكد لنا أنه إنما فعل ذلك لمصلحتنا جميعا!

* * *

أما الحدث الثالث الذي وقع خلال ذلك النصف الثاني من العام،

فقد كان زيارة غير متوقعة من شقيق بيجوتي وابنه هام. وحين طلبت لمقابلة بعض الزائرين ظننت أنني سأرى مستر مردستون وشقيقته، ثم فكرت في أمي على الأثر فصعدت الدموع إلى عيني. ولكن حين لمحت صديقي بحَاري "يارموث" لم أملك نفسي من الضحك، من شدة الفرح، فضحكا بدورهما وهما يبديان دهشتهما من ازدياد نموي وطول قامتي..! وسألتهما عن أنباء أمي، وبيجوتي، والصغيرة إميلي فذكرا أن الجميع بأتم خير ثم صمتا قليلا، وأثناء ذلك أخرج الرجل من جيوبه اثنين من "أبي جلمبو" وسرطان بحر كبيرا وكيسا مملوءا بالجنبري، قدمه لي وقد بدا عليه شئ من الحيرة والارتباك.. فشكرته من صميم قلبي. ثم قال موضحا دوافع زيارته: "لقد علمت بيجوتي بأني مسافر إلى" جرافسند "لإنجاز بعض الأعمال، فأوصتني بالمرور على هذه المؤسسة للإطمئنان عليك" ثم حدثاني عن إميلي بحماسة مؤثرة قائلين: "إنها غدت شابة آية في الجمال.. وإن صحتها على ما يرام، وخط يدها في الكتابة جميل رائع!".

وفيما هما يحدثانني، اتفق أن مرَ ستير فورث علينا وهو يغني، فلما رآني أتحدث مع غريبين أمسك عن الغناء فجأة ليقول لي: "لم أكن أعلم أنك هنا يا كوبرفيلد!". ثم ابتعد.. وإذ ذاك ناديته قائلا: "تعال يا ستير فورث.. هذان بحاران من يارموث، وهما قريبان لمربيتي الوفية، وقد جاءا من "جرافسند" ليزوراني..

"فقال ستير فورث وهو يعود أدراجه: "آه، ها.. لكم أنا مسرور برؤيتهما".. ثم أضاف بلهجته المرحة الظريفة التي تضفي جاذبية خاصة على كل ما يفعل: "كيف حالكما؟"

ولحظت أنه قد راق في عيني البحارين من النظرة الأولى.. فقلت لهما على سبيل التحية له: "إن مستر ستير فورث ودود جدا معي، ولست أدري كيف كنت أفعل لو لم أتعرف إليه"..

فقال صديقي ضاحكا: "يا للحماقة!.. لا تقل لهما هذا".. لكنني استطردت قائلا: "لو صادف أن قصد مستر ستير فورث يوما إلى إقليم "نورفولك" أو "سفولك" أثناء وجودي هناك فسوف أصحبه معي إلى "يارموث" ليرى بيتكما. إنك لم تر في حياتك بيتا مثله يا ستير فورث. إنه سفينة حقيقية!

"وبعد أن شاطرني ستير فورث حماستي ووجه إلى البحارين بضع عبارات من قبيل التحية، تركانا ليعودا إلى مقرهما وهما يعربان لنا عن أطيب تمنياتهما.. وفي تلك الليلة أقمنا في حجرتنا مأدبة بهيجة أكلنا فيها الأسماك الشهية التي أحضرها الزائران.. وعلى أثر ذلك أصيب "ترادل" – لسوء حظه المألوف – بعسر هضم شديد من جراء تناول سرطان البحر.. وحين أبي أن يفصح لإدارة المدرسة عن سبب إصابته ومنشئها أوقعت عليه عقوبة الضرب بالعصا وحفظ ستة فصول من كتاب اللغة اليونانية!

الفصل الثالث

وحلت العطلة المدرسية.. وأقلتني عربة "يارموث" إلى حانة لأبيت فيها حتى يحضر في الصباح مستر "باركيس" التاجر الذي أوصلني منذ ستة أشهر إلى المدرسة كي يوصلني في هذه المرة إلى بيتي، أو بالأحرى إلى بيت لا يمت بصلة إلى بيتي القديم البهيج الذي كنت أعيش فيه مع أمي العزيزة وبيجوتي، لقد كنت أحس أن ذلك الحلم الجميل السعيد قد تبدد.. إلى الأبد!

ولما اقتربنا من المنزل بعد رحلة شاقة مضنية، تركني مستر "باركيس" مع حقيبة متاعي عند باب الحديقة، فرفعت بصري نحو أقرب نافذة، وأنا أتوقع أن أرى وجه مستر مردستون أو شقيقته.. لكنني نجوت من طلعتهما، فحزمت بقية شجاعتي ودخلت.. وحين سمعت صوت أمي في الصالون الكبير أحسست كأن ذكرى سعيدة من ذكريات طفولتي قد بعثت إلى الحياة من جديد، فقد كانت أمي تغني بصوت ناعم مثلما كانت تفعل في الماضي وأنا بين ذراعيها كي تجلب إلى عيني النعاس!

أدركت من طريقتها في الغناء أنها وحدها، فدخلت ماشيا على أطراف قدمي.. وهناك وجدتها جالسة بقرب المدفأة، وهي تهدهد طفلا صغيرا.. وما كادت تفاجأ بسماع صوتي خلفها حتى أطلقت صيحة ذعر!.. لكنها حين رأتني استردت رباطة جأشها ونهضت ثم أقبلت نحوي وهي تناديني: "عزيزي الغالي.. دافي" ثم احتضنتني وأسندت رأسي إلى صدرها في مواجهة الصغير الآخر الغالي الذي كان يحتل الركن الآخر من صدرها، وأخذت

تقبلني بينما رفعت يدي الطفل إلى شفتي، فكاد يغشى علي من فرط السعادة، وأردفت أمي وهي تغمرني بقبلاتها: "إنه أخوك!".

وجاءت بيجوتي تعدو، وركعت على الأرض بجانبنا. وارتكبت خلال ربع ساعة من غرائب أطوارها مالا أستطيع تذكره.. وعلمت منها أن مستر مردستون وشقيقته لم يكونا يتوقعان وصولي في ذلك اليوم فذهبا لزيارة بعض الجيران ولن يعودا قبل المساء.. وإذن فسنبقى ثلاثتنا وحدنا بغيرهما –كما كنا في الماضي– فترة ممتعة. وتناولنا غداءنا إلى جوار المدفأة ومعنا بيجوتي.. ولا أذكر غداء كان مرحا تتخلله المناقشات البهيجة مثل غدائنا ذاك!.. تحدثنا في كل شئ، في العرض الذي تلقته بيجوتي للزواج، والذي أضحكها حتى سالت دموعها.. والوعد الذي أعطته لأمي بأنها لن تتركها.. ثم تحدثنا عن مستر كريكل ومستر ستيرفورث، وروت بيجوتي قصة المشاجرة التي نشبت يوما بين فتاة تدعى "بتسي تروتوود" وبين أمي، وكيف تصالحتا بعد ذلك!

وبعد تناول الشاي قرأت لبيجوتي، فصلا من كتاب عن التماسيح، إحياء لذكرى أيامنا الماضية السعيدة.. واستمتعنا بأمسيتنا كأحسن ما تكون المتعة، وما زلت أذكرها بين أعز ذكريات صباي!

وفي اليوم التالي، وقت الإفطار، كان لابد لي من مواجهة مستر مردستون.. وبدا أنه لم يتنبه إلى دخولي، فاتجهت نحوه وقلبي ينبض بشدة.. وقلت له: "سيدي، أسألك الصفح، فإنني آسف على ما بدر مني، وأرجو أن تنساه!"

فقال وهو يمد إلي يده ذاتها التي عضضتها: "أنا سعيد بأن أسمع منك هذا الإعتذار!".

وهنا أحسست بالدم يصعد إلى وجهي، ثم نظرت إلى الآنسة مردستون وحييتها قائلا: "كيف حالك يا سيدتي؟". لكنها لم تجب بغير قولها: "كم يوما تستغرق عطلتك الدراسية؟!"

ولما أجبت بأن العطلة تستغرق شهرا، تنهدت وهزت رأسها وقالت: "لقد مر يوم منها على الأقل.."

ومنذ اليوم الأول، لم يدع مستر مردستون وشقيقته فرصة إلا استغلاها لإشعاري بأنني ضيف ثقيل.. وصار محرما على أن أنزوي في غرفتي أو أذهب إلى بيجوتي لأتحدث معها.. وهكذا صرت أقضي أيامي جالسا في الصالون، أنتظر بفارغ الصبر ساعة نومي.. وملأ الضيق حياتي، وصار وجود مردستون وشقيقته بمثابة كابوس يجثم على أنفاسي، ولا أستطيع الخلاص منه قط.. وفي كل مناسبة وكل ساعة كنت أحس أنني ثقيل عليهما إلى أقصى الحدود، وفي ذات صباح، قالت لي الآنسة مردستون وهي تقدم لي قدحا من الشاي:

– إن اليوم هو آخر أيام عطلتك الدراسية!

وكانت بادية الغبطة. وفي اليوم التالي ظهر الرجل الذي يرافقني في رحلاتي عند باب الحديقة.. ووقفت الآنسة مردستون إلى جانب أمي تودعانني.. فعانقت أمي وأخي الطفل بقلب ثقل عليه فراقهما.. وإن لم

يثقل عليَ فراق البيت ذاته بعد أن تبدل الأمر فيه، ولم أكد أضع قدمي في العربة حتى سمعت صوت أمي وهي تهتف باسمي منادية، ورأيتها واقفة أمام البوابة وقد جمدت كالتمثال، لكن نظرتها إليَ في تلك اللحظة كانت ذات تعبير لن أنساه قط!.. وكم تراءت لي منذ ذلك اليوم في أحلامي، واقفة بلا حراك، صامتة لا تنطق، وإنما ترمقني بتلك النظرة المفعمة بالرقة والحنان..!

* * *

لا أريد أن أطيل في سرد الذكريات التالية لعودتي للمدرسة. وحسبي أن أذكر يوم عيد ميلادي في شهر مارس التالي، فهو يوم لن أنساه، كان الجو باردا قاتما، وكنا قد عدنا لتونا إلى الفصول بعد "الفسحة".. وإذا بأحد التلاميذ يناديني قائلا: "دافيد كوبرفيلد.. يذهب إلى قاعة الإنتظار.."

فتوقعت زائرا من عند بيجوتي.. ولكن ما كان أشد دهشتي حين رأيت مستر كريكل جالسا في القاعة يقرأ الصحف، وإلى جانبه عصاه.. ثم زوجته وفي يدها خطاب مفتوح، وقالت السيدة كريكل وهي تأمرني بالجلوس على طرف المقعد المستطيل بجانبها: "دافيد كوبرفيلد.. أريد أن أكلمك في شأن خاص يا بنيَ" ونظرت إلى مستر كريكل، فإذا هو يطلق تنهدة وهو يقرأ الصحيفة، بينما استطردت هي فقالت: "إنك أصغر سنا من أن تعرف كيف تتغير الدنيا كل يوم، وبأي سرعة يرحل الناس.. وهذا ما نتعلمه جميعا إن عاجلا أو آجلا"، ولما نظرت إليها جادا،

سكتت هنيهة ثم واصلت كلامها فقالت: "حين غادرت منزلك في نهاية العطلة، هل كان الجميع هناك في صحة جيدة؟"

ولست أدري لم ارتعدت أوصالي لدى سماعي هذا السؤال، ووقفت حائرا لا أدري كيف أجيب، بينما استطردت هي فقالت: "يحزنني أن أخبرك أن والدتك مريضة.. مريضة جدا يا بني!"

وهنا غامت الدنيا أمام عيني، وبدت السيدة كريكل بجانبي شبحا لا أكاد أميز ملامحه.. ثم سمعتها تقول: "إنها في حالة خطرة!"

وعندئذ فهمت كل شئ.. فلابد أن والدتي قد ماتت، لم أكن في حاجة إلى من يصارحني بهذه الحقيقة الموجعة، وتملكني على الفور يأس قاتل، فقد شعرت فجأة بأنني وحيد في هذه الدنيا الواسعة!

وفي الصباح التالي غادرت مؤسسة سالم، وكنت أتوقع أن أجد مستر "باركيس" ينتظرني كالعادة في "يارموث" لكنني وجدت بدلا منه رجلا ضئيل الجسم يرتدي السواد من رأسه إلى قدمه. وقد طلب مني أن أصحبه ثم أدخلني متجره، فأدركت لأول وهلة أنه خياط وتاجر خردوات وحانوتي في وقت واحد.. وفيما هو يسجل مقاييس سترة الحداد التي أوصوه بصنعها لي، أنبأني بأن أخي الطفل قد توفى بعد وفاة أمي بيوم واحد ووضعوه بين ذراعيها تنفيذا لوصيتها!

وبعد أن قدم لي بعض الطعام، أجلسني في عربة سوداء ذات طابع خاص، علمت فيما بعد أنها كانت تحمل النعش المطلوب لجثمان أمي،

وسارت العربة بنا حتى وصلنا أخيرا إلى المنزل العتيق الذي تخيم عليه الكآبة. وهناك تلقتني بيجوتي بين ذراعيها قبل أن أبلغ الباب، وقد انفجر شجنها عند رؤيتها إياي، لكنها تمالكت نفسها شيئا فشيئا ورافقتني دون ضجة وهي تكلمني بصوت خفيض، كأنما تخشى أن تزعج الميتة!

وعلمت منها أنها لم تنم منذ ليال، إذ بقيت ساهرة على جثمان سيدتهم العزيزة، وقد آلت على نفسها ألا تتركها إلا بعد استقرارها في مثواها الأخير.

أما مستر مردستون فلم يظهر أي اهتمام بي حين دخلت الصالون الذي كان جالسا فيه يبكي في صمت.. وأما شقيقته فكانت في مكتبه غارقة بين الأوراق والخطابات، وحين رأتني مدت إليَ أناملها في فتور كي أقبلها، وهي تسألني عما إذا كانوا قد أخذوا مقاييس بذلة الحداد التي ستصنع لي.. وكان هذا كل ما تفضلت به عليَ في مجال العزاء.. وفي ليلة الدفن أخذتني بيجوتي إلى الحجرة التي رقدت فيها أمي العزيزة، وطفلها بين ذراعيها.. كان كل شئ فيها بياض وسكون، مثل الطابع المألوف لمملكة الموت.. وكان يسود المكان جو من الرهبة والمهابة جعلني لا أجرؤ على النظر إلى الفراش، فجثوت على ركبتي عند باب الحجرة ولبثت بلا حراك!

وعند عودتي من الجنازة، سارعت إلى الإنزواء في غرفتي، ثم لحقت بي بيجوتي كي تحدثني عن أمي وتصف لي كل ما أجهل عن نهايتها. قالت لي: "إنها لم تكن بخير منذ زمن غير قليل.. لم تكن

سعيدة ألبتة.. ومنذ ولد طفلها أخذت صحتها تتدهور يوما بعد يوم، وانهارت أعصابها فصارت أبسط كلمة جافة تصدمها وتجعلها تنطوي على نفسها في استحياء وتخوف ولم تبق على سجيتها مع أحد من المتصلين بها سواي أنا".

وتوقفت بيجوتي عن الكلام لحظة وضغطت يدي في حنان، ثم أردفت: حين سافرت أنت بعد انتهاء عطلتك قالت سيدتي لي: "إن شيئا يهتف بي أنني لن أرى ابني ثانية. أنا واثقة من ذلك".. ولم تكن تتكلم بهذه اللهجة إلا معي.. وقبل الحادث بأسبوع واحد همست في أذن زوجها: "يا عزيزي إني أموت". وفي تلك الليلة ذاتها قالت لي وهي تأوى إلى فراشها: "إنني تعبة جدا يا بيجوتي، فإذا نمت فامكثي بالقرب مني ولا تتركيني.. وليبارك الله ولديَ ولاسيما ذاك الذي ليس له أب يرعاه". وفي الليلة الأخيرة عانقتني وقالت: "إن الطفل الصغير مريض منذ حين، فإذا مات أيضا فلتضعوه بين ذراعي ولتدفنونا معا. ولا تنسى أن تؤكدي لولدي العزيز أن أمه باركته في ساعتها الأخيرة، لا مرة واحدة.. بل ألف مرة ".. وقد حرصت على أن تكرر وصيتها الأخيرة هذه كلما كانت في غيبوبتها، وسكتت بيجوتي مرة أخرى وربتت يديَ من جديد.. ثم استطردت: "عند مشرق الشمس حدثتني عن طيبة أبيك – مستر كوبرفيلد – وعن الأيام السعيدة التي عاشتها معه.. وأخيرا طلبت مني أن أقترب منها وأضع ذراعي تحت رأسها، وأدير وجهها نحوي، ففعلت ما طلبته مني. وإذ استراحت إلى وضع رأسها المتعب على ذراع خادمتها العجوز ابتسمت وأسلمت الروح مثل طفل يخلد إلى نوم لطيف تتخلله أسعد الأحلام".

الفصل الرابع

بعد وفاة أمي بفترة قصيرة، أخذتني بيجوتي كي أقضي معها أياما في "يارموث".. وانتهز مستر باركيس هذه الفرصة التي جمعت بينه وبين بيجوتي كي يطلب يدها للزواج.. فأرجأت بيجوتي ردها إلى فرصة أخرى.. وذات يوم، فيما كانت نتنزه معا وحدنا، سألتني بيجوتي فجأة:

– عزيزي دافيد، ماذا يكون رأيك إذا أنا تزوجت؟

فأجبتها: "أعتقد أنك سوف تظلين على حبك لي دائما هل هو مستر باركيس الذي تعتزمين الزواج منه؟"

ولما أجابت بأنه هو، قلت لها: "إن هذا يكون غاية مرامي، فسوف تكون لك دائما عربة وجواد تحت تصرفك كي تحضري لرؤيتي"

فقالت لي: "نعم يا كنزي الغالي، هذا مؤكد.. منذ اليوم الذي يكون لي فيه بيت، سوف تكون أنت موضع ترحيبي دائما في أية لحظة، وسأعد لك حجرة صغيرة أتعهدها كما ألفت أن أتعهد حجرتك وسوف تجدها دائما في انتظارك حتى لو ذهبت إلى الصين ثم عدت"

وتم الزواج دون ضجة بسبب حدادنا.. ومكثت بضعة أيام في يارموث، وقد سر شقيق بيجوتي وابنه هام ببقائي، وحدثاني كثيرا عن ستيرفورث، ووجهه الوسيم، وأساليبه الأنيقة، وفصاحة لسانه.. كما لذ لي أن أسمعهما يصفان مبلغ شجاعته وكرمه ونبله وعلمه وفطنته.. فقد كنت معجبا

به إعجابا جعلني أخلع عليه أحسن الصفات، وكانت نظراتي قد استقرت على وجه اميلي، فأدهشني مبلغ الانتباه الذي أولته لحديثي، إذ كانت تصغي إليَ مبهورة الأنفاس وقد لمعت عيناها الزرقاوان مثل حجري ياقوت، واحمرت وجنتاها من فرط الانفعال.. ولم أكن وحدي من لاحظ ذلك، فقد علق الجميع على هيئتها ضاحكين، وقالت بيجوتي: "إن اميلي مشوقة مثلي أن ترى هذا الشخص الذي تتحدثون عنه" وعندئذ أحمر وجه اميلي ونهضت مسرعة فاختفت عن الأنظار حتى حانت ساعة النوم.

وفي اليوم التالي لعودتي إلى بيتنا القديم، أخبرني مستر مردستون –في حضور أخته– أنه وجد لي عملا في متجر "مردستون وجريمبي" بلندن، في مقابل طعامي ومبلغ من المال يكفي لمصروفي الخاص.. بينما سيتكفل هو بدفع أجر سكني وغسل ثيابي، وأضافت الآنسة مردستون قائلة لي:

– ينبغي أن تؤدي واجبك، ما دمنا سنكفلك!

ولم أقل شيئا.. وماذا يقول في تلك الشفقة صبي في العاشرة، قاسي من الآلام الجسدية والنفسية – قبل الأوان – ما لا قبل له به، ثم يرسل إلى لندن ليعيش كخادم صغير في متجر؟

وحجزت لي غرفة صغيرة عند قوم طيبين يدعون آل "ميكاوبر"، كانت حياتهم صراعا مستمرا مع دائنيهم، ولكنهم رغم ذلك كانوا يتناسون همومهم وينتقلون من حالة اليأس القاتم إلى المرح البهيج بسهولة محيرة!. ولما كنت في ذلك الحين صغير السن، فقد وجدت صعوبة ما في تدبير حياتي وفقا لميزانيتي الضئيلة التي كان ينبغي أن

تكفي لضرورات معيشتي.. بل كنت من الصغر بحيث كان السعاة في المقاهي يترددون في أن يقدموا لي قدحا من البيرة، أما طعامي فكان لقلته يكاد يقيني الموت جوعا.. ورغم أنني لم أقاس آلاما جسمية، فقد عانى قلبي الصغير آلاما نفسية تجل عن الوصف، من فرط شعوري بأنني بائس وحيد منبوذ، في وسط كل ما يحيط بي في العاصمة من مظاهر النعمة والابتهاج!

وقد حرصت على أن أكظم ألمي، ولم أبح به حتى في خطاباتي إلى بيجوتي.. وكانت متاعب أسرة "ميكاوبر" قد أضافت أحزانا جديدة إلى أحزاني.. وحين رأيتهم تعساء مثلي ازددت تعلقا بهم، رغم فوارق السن التي بيني وبينهم توطدت بيننا صداقة خالصة، جعلتني أقبل الذهاب عدة مرات إلى متجر للثياب القديمة كي أبيع ثيابهم أو كتبهم وأقبض مقابلها نقودا تعينهم على مواجهة مطالب الحياة الضرورية.. وذات يوم لم يبق لديهم ما يبيعونه، فانتهى الأمر بالحكم على رب العائلة بالسجن وفاء لديونه..

وحين خرج مستر "ميكاوبر" من السجن قرر أن يترك لندن هو وأسرته للعيش في مكان آخر.. فسبب لي قرارهم هذا ارتباكا، ولم أستطع احتمال فكرة البقاء وحدي بغير أصدقاء، والسكني بين غرباء، وبدء حياة جديدة في ظروف مغايرة لحياتي السابقة تماما، وتفاقمت وطأة شعوري بحرج موقفي، وآلمني فراق أسرة "ميكاوبر" إلى حد جعلني أخرج – في الليلة ذاتها التي رحلوا فيها – كي أبحث بأي وسيلة عن

عمتي بتسي وأروى لها قصتي.. وتركزت كل أفكاري وكل جهودي منذ تلك اللحظة حول هذا الهدف. وحين تلقيت من بيجوتي عنوان عمتي، اعتزمت السفر مساء يوم السبت التالي، قبل موعد صرف الأجور، ما دمت قد قبضت المستحق لي مقدما.. فإنني رغم صغر سني كنت شخصا أمينا وحريصا على أن أترك ورائي في متجر "مردستون وجريمبي" ذكرى حسنة وسمعة غير مشوبة.

وكانت بيجوتي قد أنبأتني بأن عمتي تقطن قريبا من "دوفر"، ولم تستطع تحديد المكان، وهل هو "هايث" أو "ساندجيت" أو "فولكستون" لكن ذلك لم يكن بالأمر ذي الأهمية ما دمت سأذهب سيرا على قدمي، وفي وسعي أن أتنقل من مكان إلى مكان مارا بها جميعا، واستأجرت غلاما كي يحمل حقيبة متاعي مقابل ستة بنسات، فقبل ذلك وحمل الحقيبة على عربة صغيرة وبدأنا رحلتنا.. طلبت منه أن يسير الهويني كي أستطيع أن أتبعه على قدمي.. وأثناء سيرنا أخرجت حافظة نقودي وبعد لحظات.. فوجئت بصدمة عنيفة في رأسي فقدت على أثرها الوعي.. وحين أفقت واستعدت صوابي، لم يكن هناك أي أثر للعربة والغلام، ولا لحافظة النقود، وبين بكائي ونشيجي، استأنفت سيري في اتجاه جرينويش، إذ كنت أعلم أنها تقع على الطريق المؤدي إلى دوفر.

وكان الليل قد أرخى سدوله، ولكن الليلة لحسن الحظ كانت من ليالي الصيف الرائعة، وإن أفسدها علي خلو جيبي من كل أثر للنقود.. وزاد الطين بلة نشاط خيالي في التصورات، فقد رأيت نفسي أموت جوعا

بجانب سياج عتيق في إحدى قرى الطريق. وحين مررت أمام حانوت لشراء البضائع القديمة لم أستطع منع نفسي من التفكير في أمر أسرة "ميكاوبر" وفي الصفقات العديدة التي أجريتها لحسابها في حوانيت مماثلة.. وإذ ذاك خطرت لي فكرة أن أحاول الحصول على بعض النقود بتلك الطريقة.. فخلعت صديريتي ودخلت الحانوت أساوم بشأنها.. طلبت ثمانية عشر بنسا، فحصلت على نصف هذا المبلغ بالضبط، ومع ذلك شعرت بالسعادة، ولاسيما أني كنت أجهل طول الطريق وبعد المسافة الباقية التي علي أن أقطعها.

وصار لزاما على أن أقضي الليلة –لأول مرة في حياتي– في العراء.. وفي مرحلة من الطريق استنتجت من المناظر المحيطة بي أنني غير بعيد من مدرسة سالم. وحاولت أن أرى جدران المدرسة من مكاني، فرأيتها بمشقة.. وبعد فترة من الوقت توقفت عن المسير عند جرن من التبن في أحد الأركان وفيه قضيت ليلتي الأولى، والله وحده يعلم مدى الانزعاج الذي انتابني قبل أن أنام، وبشاعة الكابوس الذي داهمني أثناء نومي، وصحوت وأنا أحس شيئا من الراحة والانتعاش.. ومشيت طيلة اليوم كي أصل في النهاية إلى "شاثام" حيث نمت هذه المرة في حمى مدفع ملقى على جانب الطريق. وفي الليلة التي تلتها نمت في أحد حقول حشيشة الدينار، بدا لي أن عيدانه الطويلة توفر شيئا من الحماية.. ولم أصل إلى دوفر إلا في اليوم السادس.. ورحت أسأل عن البقعة التي تقطنها عمتي، فكان بعضهم يستنكف من الإجابة عن سؤالي، وبعضهم يسخر مني.

وهناك على عتبة حانوت مغلق، جلست متهالكا، في حالة من اليأس لا يمكن وصفها.. وأشفقت السماء على فهيأت لي رجلا سقط من عربته وهو مار غطاء جواده فحملته إليه، ثم كررت عليه سؤالي المألوف عن عمتي، فإذا هو يعرفها، وأرشدني إلى الحي الذي تقطنه، وأعطاني فلسين اشتريت بهما خبزا سكنت به آلام معدتي الناشئة عن الجوع.

وبعد أن استفسرت في الطريق مرة أخرى، وجدت نفسي أمام منزل جميل من الطراز العتيق، له نوافذ ضخمة تطل على حديقة مليئة بالزهور، فوقفت دقائق أمام السور، وقد انتابني القلق من الشعور الذي عساه أن يحدثه في عمتي منظر قريبها الصغير المسكين، بوجهه المغبر، وشعره الأشعث، وقدميه شبه الحافيتين، وأسماله البالية التي لا تصلح لغير الشبح الذي يعلق في الحقول لا خافة الغربان، وكان الصمت سائدا في الطابق الأرضي، فرفعت بصري إلى نافذة في الطابق الأول رأيت فيها وجه رجل منشرح متهلل غمز لي بعينه وأومأ لي برأسه وهو يضحك، فبلغ من دهشتي أنني فكرت في الابتعاد، ظنا مني بأنني أخطأت المكان، ولكن الباب فتح في تلك اللحظة، وظهرت على عتبته امرأة متقدمة في السن، جافة العود كالعصا، وتقدمت في الحديقة نحوي قائلة: "اذهب عن هنا فلا مكان للأولاد" ثم أدارت لي ظهرها ومضت نحو ركن من الحديقة، فاتجهت نحوها، في حركة باعثها اليأس أكثر من الشجاعة، ولمستها في رقة بطرف اصبعي قائلا: "عفوا يا سيدتي"، فاستدارت نحوي.. وإذ ذاك قلت لها: "عفوا يا عمتي.. أنا ابن أخيك".. فصرخت

عمتي وهي تتخاذل من الدهشة فوق الممشى المكسو بالرمل بينما واصلت تعريفها بشخصي قائلا:

– أنا دافيد كوبرفيلد من "بلندرستون" في ولاية سافولك، حيث جئت ليلة مولدي لترى أمي العزيزة. لقد صرت تعيسا منذ ماتت.. صرت أضرب وأنبذ ثم أجبروني على عمل تعجز عنه قواي. لهذا جئت أخيرا لاجئا إليك. قطعت الطريق كله ماشيا على قدمي، وسرق مني اللصوص ما كان معي من نقود قليلة.. وهكذا منذ خمس ليال لم أنم على فراش..

وأبديت لها بحركة من يدي حالة الإعياء التي صرت فيها، ثم خذلتني شجاعتي ودهمتني نوبة من الدموع الغزيرة التي ما كانت لتفيض بهذه الوفرة ولو أنفقت في جمعها أسبوعا كاملا.. وأمام هذا المنظر أفاقت عمتي من حالة الجمود التي كانت فيها وأدخلتني في عجلة إلى بيتها، وبدأت بأن جعلتني أتجرع محتويات عدة قوارير مزجتها من مواد كثيرة، تبينت بينها طعم شراب الينسون وصلصة الأنشوجة والخل الممزوج بالزيت والملح.. وبعد ذلك أرقدتني على مقعد مستطيل، ووضعت ملاءة تحت رأسي وأخرى تحت قدمي منعا لاتساخ الوسائد والأغطية، ثم جلست بقرب بارافان كبير أخضر وهي تكرر قولها: "فليرحمنا الله"..

وبعد قليل، جاءت خادمتها فقالت لها: "جانيت.. اصعدي عند مستر ديك، وأبلغيه أني في حاجة إلى التحدث معه".

وراحت عمتي تذرع الحجرة ذهابا وجيئة حتى أقبل الرجل الذي استدعته، فإذا هو الكهل المسن الذي لمحته مطلا من النافذة عند

دخولي.. وبادرته عمتي قائلة: "مستر ديك.. لقد سمعتني مرارا أذكر اسم أخي كوبرفيلد، أليس كذلك؟ هذا هو ابنه، وسوف يصير صورة من أبيه، وإن يشبه أمه أيضا بعض الشبه" فهتف مستر ديك: "ابنه؟. أحقا هذا ابنه؟"

فأجابت عمتي: "نعم. وقد قام بعمل جليل: لاذ بالفرار.. آه إن أخته بتسي تروتوود ما كانت لتفعل هذا قط، أنا واثقة.. والآن، قل لي ياديك، يا صاحب الذهن الذي يخترق الأعماق مثل مبضع الجراح، ماذا ينبغي أن أفعل به؟"

فقال مستر ديك وهو يرمقني بنظرة غامضة شاردة: "لو كنت مكانك لأعطيته حماما قبل كل شئ" وبدت في وجه عمتي أمارات شعور بالإنتصار، ثم نادت خادمتها وقالت لها:

– أعدي حماما ساخنا.. إن مستر ديك على حق!

لكن هذا الحوار لم يرقني مثلما راقتني الأشياء المحيطة بي، فأصغيت إلى الحديث الدائر بأذن واحدة، لكني نظرت حولي بكلتا عيني.. وكانت عمتي امرأة كبيرة الجسم.. وكان في شخصها كما في حركاتها قدر من الصرامة والشدة يكفي لإرهاب مخلوقة ناعمة مثل أمي، لكنها مع ذلك كانت جميلة، جمالا عبوسا، تشطر شعرها المصفف شطرين، يظهران تحت قبعتها. وكان ثوبها دقيق الصنع، لكنه ضيق يشبه ثوب ركوب الخيل. وكانت تحمل ساعة من الذهب من الطراز الذي يستعمله الرجال، وحول رقبتها وأساور كميها قطع من القماش الأبيض تكمل زينتها، أما مستر ديك فكان ذا طلعة مشرقة وعينين واسعتين

بارزتين، وطابع شرود جعلني أنسب إليه شيئا من الجنون، وأما جانيت فهي فتاة في العشرين، صورة مجسمة للنظام والنظافة، اللذين كانا طابع المنزل نفسه، بحيث كنت تستطيع أن ترى صورتك على صقال قطع الأثاث كما لو كانت مرايا.. وكل شئ كان في مكانه المناسب، حتى القطة وعصفور الكناري وفيما كنت أرقب ما حولي اعتدلت عمتي فجأة في حركة سخط وحنق وصاحت:

– جانيت.. حمير.

وهبطت جانيت السلم في سرعة كما لو كان المنزل قد شبت فيه النيران، وجرت في اتجاه قطعة أرض منزرعة حشائش تقع خارج السور كي تطرد حمارين تركبهما سيدتان، وفي الوقت نفسه هرعت عمتي نحو الحمار الثالث فجرته من بردعته إلى خارج الحشيش المقدس، وشدت أذني الحيوان المسكين الذي جرؤ على تدنيس المكان، وقضيت ساعتين بعد الحمام متمددا على ذلك المقعد المستطيل في حالة تخدر وخمول، وقد ارتديت بنطلونا قديما لمستر ديك وتدثرت بشالين أو ثلاثة، وسمعت – كأنما في حلم – صوت عمتي تنعي على أمي زواجها الثاني، وتنتقد زواج بيجوتي، والموقف الذي نشأ عنه بالنسبة لي، وخلال ذلك كله كانت صيحات الحرب تتوالى بين حين وآخر: "جانيت.. حمير".

وبعد تناول الشاي أومأت عمتي بسبابتها لمستر ديك قائلة:

– ديك.. تأمل جيدا هذا الصبي.. ماذا ينبغي أن أفعل به الآن؟

فقال مستر ديك في شئ من التردد: "ضعيه في فراشه" .. وعندئذ هتفت عمتي: "جانيت، إن مستر ديك ينصح لنا بأن نضع الصبي في فراشه، هل انتهيت من إعداد سريره؟."، وشد ما كانت فرحتي بالعودة إلى النوم في حجرة حقيقية.. ولاسيما أن حجرتي كانت رائعة، تطل على البحر، وكان القمر بازغا في تلك الساعة.. وحين خلوت إلى نفسي جثوت على ركبتي، وأخذت أصلي وقد فاض بي الشكر لله الذي أنقذني من الجحيم الذي كنت فيه.

* * *

في صباح اليوم التالي لقيت عمتي على مائدة الإفطار، وكانت مستغرقة في أفكارها إلى حد أنها لم تلحظ نقط الماء التي كانت تتساقط من الإبريق على مفرش المائدة.. وحين تناولت قدح الشاي راحت ترمقني في شرود دون أن تنطق بكلمة، فبلغ بي الارتباك مبلغا جعلني أرتكب ألف حماقة أثناء الأكل، وأخيرا صاحت عمتي: "أهلا!"، فرفعت عيني إليها مستفسرا. وعادت هي تقول: "لقد كتبت إليه.. إلى زوج أمك. أرسلت إليه خطابا لكي..، فهتفت في انزعاج: "يا لشقائي.. أيعلم الآن أين أنا؟"، فقالت: "نعم.. ذكرت له مكانك". فلم أتمالك نفسي، وانهمرت دموعي، وتساءلت في جزع:

– هل سأضطر إلى العودة إليه؟ ماذا يكون مصيري إذن؟

فأجابت عمتي وهي تخفض رأسها: "لا أعلم.. سوف نرى"

وألقتني عباراتها في هوة سحيقة من اضطراب الروح والقلب. ولكي تخفف عمتي بعض همي وتشغلني عن نفسي طلبت مني أن أذهب لأحيي مستر ديك نيابة عنها ثم أسأله عن مدى تقدمه في كتابة قصيدة الذكرى، وعدت من مهمتي وأنا أضرب كفا بكف دهشة واستغرابا من أفكار مستر ديك المتنافرة، وإن كنت قد وجدت شيئا من المتعة في الوقت نفسه حين أراني طيارة من الورق صنعها بنفسه ووعدني أن ألهو بها معه، وكأنما أرادت عمتي أن تخفف تأثير الفكرة الأولى التي تركتها في نفسي جلستي مع الرجل، فأوضحت لي أن مستر ديك أوشك أن يوضع في مستشفى للأمراض العقلية بواسطة أخ له أشد جنونا منه، فطالبت هي بأن يعهد إليها في رعايته، ومنذ ذلك التاريخ وهو يعيش في كنفها، وقد ألفته شيئا فشيئا، حتى صارت تعده ألطف مخلوق على الأرض ثم قالت لي عمتي: "إنه الآن مشغول بكتابة قصيدة تذكارية عن أحد اللوردات وإن هذا العمل له على الأقل فائدة واحدة ملموسة، هي شغل وقت الرجل وتفكيره". وجاء رد مردستون على خطاب عمتي، فإذا هو قد حدد اليوم التالي موعدا لحضوره. والله وحده يعلم مبلغ تأرجحي بين الخوف والأمل وأنا جالس في غرفة الصالون، بملابس اليوم الأول، أنتظر جلادي.. وبعد الظهر، سمعت عمتي تطلق فجأة صرختها المنزعجة، ثم رأيت –لفرط دهشتي– الآنسة مردستون على ظهر حمار يخوض بها فوق بساط الحشيش المقدس كي يقف أمام السور، وصرخت عمتي وهي تمد أصبعها من النافذة مهددة: "أغربي عن وجهي.. ليس لك ما تفعلين هنا أيتها الوقحة" فقلت لها: "هذه السيدة والرجل الذي يتبعها هما آل مردستون"، لكنها صاحت وهي تشيح بوجهها: "لا تهمني أسماؤهم لا أريد

أن يمر أحد من هنا.. لن أسمح بهذا.. جانيت، اطرديهما من هنا".

وتلا ذلك مشهد من العسير وصفه، فقد حرن الحمار في عناد، وثبت قوائمه الأربع في الأرض، بينما راح مستر مردستون يجذبه من ناحية، وجانيت تجذبه من الناحية الأخرى، وأخذت الآنسة مردستون تضرب الأرض بمظلتها، وتجمَع عدد من صبية الشوارع على صوت الضجيج، وراحوا يطلقون صيحات الفرح والتهليل للظافر.. وإذ ذاك قامت عمتي بغارتها الموفقة، فأمسكت بالحمار الصغير من رقبته وجرته إلى داخل الحديقة وهي تصيح بجانيت أن تذهب لاستدعاء رجال الشرطة.

وإذ انتهى الصراع هكذا استانفت عمتي مسلكها الفظ بعد أن هدأت ثأرتها قليلا، وسبقت مستر مردستون وشقيقته إلى الصالون في خيلاء، فلما تبعاها سألت عمتي وأنا أرتجف هلعا:

– هل ينبغي أن أسحب يا عمتي؟

فأجابتني وهي تدفعني إلى ركن قريب منها: "كلا، كلا بالطبع" ثم قالت موجهة كلامها إلى ضيفيها:

– إنني لا أسمح لإنسان بأن يخوض في هذا الحشيش، وليس لي أن أستثنيكما من هذه القاعدة.

فقالت لها الآنسة مردستون: "إن قاعدتك هذه تنطوي على طغيان"

فأجابتها عمتي متسائلة في لهجة لاذعة: "أي طغيان تعنين؟!"

وإذ ذاك تدخل المستر مردستون في الأمر حتى لا يؤدي النقاش إلى

استئناف العدوان. ولكن عمتي قطعت كلامه قائلة له وهي تحدجه بنظرة ثاقبة: "اسمع يا مستر مردستون، إنك تزوجت أرملة المرحوم كوبرفيلد، وكان من الخير لتلك المسكينة ألا تتزوجها"، وحاول مستر مردستون أن يتكلم، ولكنها أشارت إليه ألا يفعل، وهتفت بخادمتها جانيت قائلة: "أبلغي مستر ديك أنني في انتظاره هنا وأريد أن يحضر الآن"..

وجاء مستر ديك، واصبعه في فمه، وعلى وجهه علائم وقار أبله، وقامت عمتي بتقديم كل من الرجلين إلى الآخر.. ثم قال لها مردستون:

– يا آنسة تروتوود.. لقد رأيت من الأفضل أن أحضر بنفسي لأجيب على خطابك. إن هذا الصبي التعس الذي فر من عمله وأصدقائه..

وسارعت أخته إلى إكمال عبارته قائلة: "إنه أسوأ صبي في الوجود.."

فقالت لها عمتي في جفاء: "هذا قول فيه قسوة ولا شك"

ومضى مستر مردستون يسرد اتهاماته قائلا: "لقد ربيته على مبادئ تلائم شخصيته، وكفلت له عملا محترما، فكان جزائي أنه هرب كأي متشرد كي يشكوني إليك"

فقالت له عمتي: "هل كنت ترضى له مثل ذلك العمل لو أنه كان ابنك أو كانت أمه على قيد الحياة؟"

فقال في ثقة: "أعتقد أن كلارا ما كانت لتناقش القرار الذي اتخذناه أنا وشقيقتي لمصلحة الصغير" فتنهدت عمتي وقالت: "يا للتعسة.. كان من سوء حظها أن فكرت في الزواج منك، دون أن تفكر في تأمين حياة ابنها بعدها".

فقال مستر مردستون: "إن زوجتي المتوفاة كانت تحبني إلى الدرجة التي جعلتها توليتي ثقتها الكاملة" فردت عليه قائلة: "إن زوجتك المتوفاة لم تكن غير طفلة تعسة لم تجرب الحياة والآن ماذا تريد أن تقول لي؟"

فقال: "إنني مستعد لأن أستعيد دافيد وأعامله وفق ما يستحق.. ولكن إذا كانت لديك نية التدخل بيني وبينه، إذن فلتتكفلي به إلى النهاية.. إني أطالب به للمرة الأخيرة، فهل هو على استعداد لأن يتبعني؟ إذا لم يكن على استعداد فسوف أغلق بابي في وجهه أبدا.وأعتقد أنك ستفتحين له بابك"

وإذ ذاك توجهت عمتي إلي متسائلة: "دافيد.. هل تريد أن تذهب مع مستر مردستون؟"

فأجبت على الفور: "كلا.. لا أريد ذلك أبدا. وإني أضرع إليك بحق أبي أن تحتفظي بي. إن مستر مردستون وشقيقته لم يعطفا علي قط، ولا كانت لديهما النية الطيبة نحوي في وقت من الأوقات.. لقد أشقيا أمي بسببي، وتستطيع بيجوتي أن تقول الكثير في هذا الشأن.. بل لقد كنت أنا نفسي شقيا بفعلهما إلى أقصى حدود الشقاء"

وإذ ذاك التفتت عمتي إلى مستر ديك وسألته: "مستر ديك.. ماذا ينبغي أن أفعل بهذا الصبي؟" فأخذ ينظر إلي، وبعد أن تردد قليلا، قال وهو يبتسم ابتسامة أضاءت وجهه الممتلئ: "ينبغي أن توصي بأخذ مقاسه لحياكة بذلة كاملة له" وبدا السرور في وجه عمتي، ثم جذبتني نحوها وقالت للمستر مردستون:

– إذن تستطيع أن تذهب يا مستر مردستون، فسوف أغامر بكل شئ.. وإذا صح ما تقوله عنه فسأتخذ معه الوسائل التي اتخذتها أنت.. لكنني لا أصدق حرفا مما تقول.

وإذ ذاك صاح مستر مردستون مغيظا مهددا: "لو أنك كنت رجلا..؟!"

فقالت له: "أتحسبني لا أعرف كيف كانت حياة أمه المسكينة الساذجة معك؟.. أم تظنني مغفلة؟"

فقالت الآنسة مردستون: "يا لأناقة التعبير"

لكن عمتي استطردت غير آبهة: "إنك أخذت تتقرب إليها، فلما وثقت من أنها لن تفلت منك، بدأت تطبق مخالبك عليها شيئا فشيئا، وأجبرتها – مثل عصفور سجين في قفص – على أن تنسى أحلامها لكي ترضي أحلامك. اسمع يا مستر مردستون، لقد كنت الطاغية المستبد في حياة تلك المخلوقة الصغيرة التعسة، وقد حطمت قلبها.. والواقع أنني أدركت – قبل أن تدرك أنت – أنها كانت كائنة رقيقة مرهفة، لكنك استغللت ضعفها وأنزلت بها الصدمة التي قتلتها.. أما هذا الصبي المسكين فقد جعلته الأداة المرهفة لإنهاء حياة أمه. وإذا كان قد أساء إليك فلأنه لا يستطيع إلا أن يذكر إساءاتك إليه"

وكان مستر مردستون قد نهض واتجه نحو الباب وهو مقطب الجبين، وحين حاول أن يبتسم ابتسامة تنطوي على الاحتقار كان وجهه

في شحوب الأموات.. وقالت عمتي وهو يعبر عتبة الباب:

– وداعا يا سيدي، وداعا لك أنت أيضا يا سيدتي.. حذار أن يجرؤ أحدكما على السير بحماره فوق حشائش الجازون.. إنني لن أتردد في انتزاع قبعته من فوق رأسه كي أطأها بقدمي..

ولم يكد الثقيلان يختفيان عن الأنظار حتى أشرقت طلعة عمتي وبدت جاذبيتها، فلم أملك نفسي من الإرتماء عليها وإحاطتي عنقها بذراعي في عناق حار وأنا أجزل لها قبلات الشكران..ثم تصافحت مع مستر ديك باليد عددا لا يحصى من المرات..وقالت عمتي تسأل مستر ديك: ألا ترى أنه يحسن بي أن أطلق اسم "تروتوود" على هذا الصبي؟!".. فأجابها: "هذا أحسن كثيرا.. لا شك في ذلك.. فليكن اسمه.. تروتوود كوبرفيلد"

الفصل الخامس

صرنا أنا ومستر ديك لا نكاد نفترق بفضل الطائرة الورقية التي صنعها وكنا نلهو بها معا. وكنت حين نعود من نزهاتنا أقبل على عمتي بوجه يطفح سرورا.. ثم قالت لي في ذات يوم: "تروت.. يجب ألا تنسى أمر تعليمك..هل تحب أن تذهب إلى مدرسة كنتربري؟" وحين أجبتها بالإيجاب أمرت جانيت بأن تعد حقيبة ثيابي وتحزم متاعي كي نستطيع الرحيل في صباح الغد.. وكم تألم مستر ديك المسكين لفكرة فراقي.. لقد أغراه الأسى بأن يلعب لعبة "البرغوثة" مع عمتي وهو شارد، حتى اضطرت لإيقاف اللعبة كي تعزي المسكين بقولها: "إنه سوف يحضر لقضاء عطلة الأحد معنا، وسيكون في استطاعتك أن تزوره كل يوم أربعاء" وفي الصباح التالي قادتني عمتي إلى مكتب شخص يدعى مستر ويكفيلد، أرادت عمتي أن تعرف منه اسم أحسن مدرسة في كنتربري.. فدلها على مدرسة هناك، واقترح أن يصحبها إليها، على أن أنتظر عودتهما في مكتبه، فقبلت الاقتراح شاكرة، وفي أثناء غيبتهما، رأيت أن أشغل وقتي بالنظر من نافذة غرفة المكتب.. فلمحت غلاما في نحو الخامسة عشرة من عمره، ذا شعر أحمر ووجه شديد الشحوب، تتوسطه عينان صهباوان بلا أهداب ولا حواجب.. ولحظت أنه لم يكف عن اختلاس النظر إلي على صورة تثير الريبة.. فلم أسترد روعي إلا عندما عادت عمتي، برغم أنها عادت يائسة لكونها لم تعثر على بنسيون عائلي ملائم كي أقطنه أثناء مدة دراستي، لكن

كل شئ انتهى على ما يرام، حين عرض مستر ويكفيلد على عمتي أن أعيش في منزله حتى يجد لي المكان المناسب.. وقد وجدت عمتي غضاضة في ذلك أول الأمر، لكنها قبلت في النهاية.. وإذ ذاك عرَفنا إلى مدبرة منزله الصغيرة.. ولن أنسى أبد الدهر ذلك التأثير الممتع الذي تركه في نفسي مرأى وجه تلك الفتاة الجميلة ابنته آجنس التي لا تكاد سنها تكبر سني، حين أقبلت على نداء أبيها.. كانت هي كل ما تبقى له من مخلفات سنوات السعادة التي عاشها مع زوجته الجميلة، وقد ورثت عن أمها روحها الصافية وهدوءها العذب.

وفي الغد، قدمني مستر ويكفيلد إلى دكتور سترونج مدير المدرسة الجديدة التي سأتلقي فيها المرحلة الثانية من دراستي.. وكان دكتور سترونج رجلا بسيطا لطيفا، وكانت مدرسته مثله.. يا للفارق الكبير بينها وبين "مدرسة سالم"، حتى في تلاميذها.. لقد شعرت على الأثر بأنني سأغدو في هذا الوسط غلاما آخر يختلف كل الاختلاف عن الصبي الصغير التعس الذي كان يعمل في متجر "مردستون وجريمبي" في لندن.. ولم تكن غبطتي أقل بالمسكن الجديد في كنف مستر ويكفيلد الذي سرعان ما رفع الكلفة معي فقضيت في رفقته ورفقة آجنس ليالي ممتعة حقا..ثم تعرفت إلى الفتى ذي الشعر الأحمر، فعلمت أنه يدعى يوريا هيب، وأنه يعمل كاتبا لدى مستر ويكفليد.. ويظهر في عمله جلدا ومثابرة عجيبين، حتى بعد مواعيد العمل في المكتب، أملا في أن يصبح بدوره محاميا مثل رئيسه.. لكن نظرته، وملمس يديه الرطبتين، وتواضعه الذليل المتكلف الذي يظهره مع جميع العملاء، كانت كلها كريهة في نظري.

وفي ذات يوم حدثني يوريا هيب عن أمه، وذكر لي أنه يكون سعيدا جدا لو أتيح له أن يقدمها لي، إذا قبلت أن أذهب يوما كي أتناول الشاي معهما في بيتهما المتواضع. وقبلت الدعوة محرجا، معللا نفسي بتأجيل تنفيذ الوعد ما استطعت، ولم أكن قد أنبأت بيجوتي حتى ذلك الحين بالتغير الذي طرأ على حياتي، فكتبت إليها أصف كل شئ بالتفصيل.. وأنبأتني هي بدورها أن أثاث بيتنا القديم قد بيع، وأن البيت نفسه قد أغلق تمهيدا لبيعه أو تأجيره. وقد انقبض قلبي لهذا النبأ، إذ شعرت بأن كل ما خلفه أبي وأمي قد تبدد بعضه في أثر بعض.

ومضت أيامي على خير حال في مدرسة دكتور سترونج.. كانت عمتي تأتي لزيارتي مرة كل شهر، أما مستر ديك فكان يحضر بانتظام كل يوم أربعاء، ولم يلبث أن صار علما معروفا من جميع التلاميذ، بحذقه في تقطيع البرتقال، وصنع سفينة من قشور الشجر، ولعب الشطرنج بالكستناء، وصنع المركبات الرومانية القديمة حتى بلغت شهرته مسامع دكتور سترونج ومستر ويكفيلد وصارا بدورهما من أصدقائه.

وكان الظل الوحيد الذي خيم على لوحة مباهجي هو ظل يورياهيب وقد نجح أخيرا في حملي على الذهاب معه لتناول الشاي في بيته المتواضع برفقة أمه.. ولم أر في حياتي شخصين في مثل براعتهما في اصطياد جميع المعلومات التي يودان معرفتها. ورغم تحفظي كان مستحيلا علي مقاومة فضولهما إلا إذا استطاعت سدادة الزجاجة مقاومة البريمة التي تنزعها، أو استطاعت الأسنان اللبنية مقاومة الطبيب الذي اعتزم خلعها..

كنت بينهما مثل الكرة التي يتقاذفانها ويستعيدانها بمهارة فائقة.. وبرغم كل محاولاتي للدفاع عن نفسي فقد عرفا مني كل المعلومات الخاصة بأهلي، وأبي، وأمي، وزوج أمي، ونفسي، وآل ويكفيلد.. الخ.. أكثر مما أردت أن أطلعهما.. وقد استطعت أن أدرك سرورهما الشديد بنجاحهما في اقتحام قلعة تحفظي من اختلاج أهدابهما. وبلغ ضيقي أشده آخر الأمر، وصرت أتوق إلى الخلاص من المأزق الذي أنا فيه بأي ثمن. وشد ما كان اغتباطي حين وقعت عيناي وأنا أتطلع من النافذة المفتوحة على مستر ميكاوبر واقفا في الطريق أمام المنزل. وفي الوقت نفسه كان هو قد لمحني.. وهكذا اشتبكت معه في حديث آخر، وسرعان ما وجدت العذر الذي انتحلته للتخلص من قبضة "آل هيب"..

ولم أكد أضع قدمي في الطريق حتى تنفست الصعداء، وجففت يدي من أثر الرطوبة التي أصابتهما من يدي نوريا.. ثم ذهبنا نزور السيدة ميكاوبر وأولادها في الفندق الذي يقطنونه، وكانوا جميعا قد عادوا من بليموث بعد أن تنكرت لهم الحياة هناك كعادتها معهم فلم يصيبوا سوى الديون الثقيلة، واضطروا إلى اقتراض أجر السفر للعودة للعاصمة على أن ذلك لم يقعدهم عن دعوتي إلى تناول العشاء معهم، وكان عشاء شهيا تخلله المرح والنكات والأغاني البهيجة، الأمر الذي طمأنني إلى أنهم لا يفكرون في الانتحار يأسا وكمدا.

حل أخيرا يوم رحيلي عن معهد دكتور سترونج، وكنت قد تعلقت بالرجل النبيل تعلقا شديدا، وشعرت بفضله الكبير علي من ناحية التعليم

المثالي الذي يلقنه لتلاميذ معهده، فكان أسفي شديدا لفراقه، ولم يخفف من حزني إلا شعوري بلذة الاستمتاع بحريتي في استخدام نشاطي على الوجه الذي يروقني والاتصال بالعالم الخارجي اتصالا مباشرا، وبدت لي الحياة كقصة جميلة بدأت أقرأ صفحتها الأولى.. ولكني في الوقت نفسه، واجهتني مشكلة التفكير في الطريق الذي أختطه لنفسي..

كثيرا ما سألتني عمتي: "ماذا تحب أن تكون؟".. لكني حتى ذلك الوقت كنت عاجزا عن أن أتبين في تكويني تفضيلا لإتجاه أوميل معين. وإذ ذاك فكرت عمتي في أن رحلة صغيرة أبدل فيها الجو والوسط والأفكار كفيلة بأن تفهمني حقيقة ميولي وتيسر لي أن أتخذ قرارا حكيما في هذا الشأن، واقترحت عمتي أن أذهب لأقضي بعض الوقت عند بيجوتي أو المرأة ذات الاسم المتوحش كما دعتها. ولما كنت أكن لبيجوتي حبا مكينا، فقد قبلت الاقتراح مغتبطا، وعندئذ زودتني عمتي ببعض التوصيات، ذاكرة لي أنها تتوقع أن أشرفها في تصرفاتي ومسلكي، ثم نصحت بأن أقضي أياما في لندن، سواء في الذهاب أو الإياب، وقد مررت بالعاصمة في ذهابي.. وفي الليلة الأولى حضرت حفلة تمثيلية في مسرح "كوفنت جاردن" وهناك وقع بصري على شاب وسيم أنيق عرفت فيه زميلي العزيز ستيرفورث، فاعترضت طريقه أثناء الخروج من المسرح، وعرفني على الفور ففاضت دموع الفرح من عيني.. ثم سرنا معا مسافة طويلة، فلم نفترق إلا عند باب الفندق، بعد أن تواعدنا على الإفطار معا في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي.

وفي الموعد المضروب وصلت إلى المكان الذي أعطاني عنوانه، ووجدته في غرفة صغيرة لطيفة، علمت أنه يقطنها منذ كان طالبا في أكسفورد.. وقال لي على الفور: "كوبرفيلد، الآن وقد وجدتك يبدو لي أنك تخصني.. فينبغي أن تروي لي كل ما تفعل أو تعتزم أن تفعل".

ولما حدثته عن رحلتي إلى يارموث، قال لي: "بما أنك حر التصرف تستطيع أن تفعل ما تشاء، ولديك الوقت الكافي، فتعال معي لتقضي يوما أو يومين عندي في هايجيت.. وأنا واثق بأن أمي سوف تعجبك، وبأنك أنت ستعجبها ولا شك".

وقبلت اقتراحه مغتبطا، وفي الليلة نفسها قدمني إلى أمه، فإذا هي امرأة جميلة وقور، وعند العشاء قدموني إلى قريبة لهما، وفي الثلاثين من عمرها، ذات وجه قاتم ضئيل الحظ من الجمال وفي شفتها العليا ندبة تصبغها باللون الأحمر.. وكانت قد جاءت لتعيش مع الأسرة على أثر وفاة والديها.. ولحظت أنا أنها تسلك طريقا ملتوية كي تعبر عما يعتمل في نفسها، بحيث لابد لمن يتحدث معها من أن يكون على حظ كبير من الصبر لكي يمضي معها في الحديث. وقد روى لي ستيرفورث أنها أغضبته يوما وهو طفل إلى حد أنه قذفها في نوبة غضب بمطرقة أصابتها في رأسها وسببت لها ذلك الجرح الذي تخلفت عنه ندبة في شفتها العليا.

وفي أثناء العشاء، حدثت السيدة ستيرفورث عن رحلتي إلى يارموث، وأوضحت لها أنني ذاهب لزيارة مربيتي القديمة التي يقطن شقيقها بيتا غريبا هو سفينة قديمة، يشاركه فيها ابن أخ وابنة أخ حسناء

تبناها.. ثم أضفت قائلا لستيرفورث: "أنا واثق أنك سوف تسر برؤية تلك البلدة"، فقال لي: على أية حال، لا أرى داعيا إلى العجلة، وفي إمكاننا أن نبقى هنا أسبوعا آخر.

وحين ألحت أمه علي في البقاء لم أستطع رفض هذا العرض، وهناك في الغرفة المريحة التي خصصت لنومي، أويت إلى فراشي مغتبطا، ولكني لسوء الحظ ما لبثت بعد نومي حتى دخلت في حلم ثقيل غير جميل، كانت بطلته هي الآنسة "دارتل" ذات الندبة الحمراء!

الفصل السادس

انقضى الأسبوع في ضيافة ستير فورث على أحسن حال، وفي أثناء اختلاطي اليومي بصديقي في تلك الفترة ازددت معرفة به وحبا له، وأعتقد أنه ازداد تعلقا بي، وهكذا كانت فرحتنا مشتركة حين ركبنا العربة ذات صباح في اتجاه يارموث فبلغناها في المساء.

وفي الصباح التالي، وقبل أن أنهض من نومي، خرج ستيرفورث وحده ليتنزه في الخليج ويتعرف إلى نصف بحارة الميناء. بل لقد أبصر من بعيد مسكن شقيق بيجوتي. وحين عاد سألني: "متى ستقدمني إليهم؟. اختر بنفسك الساعة التي تلائمك"

فقلت له: "يبدو لي أن الأنسب أن نزورهم الليلة حين يكونون جميعا جالسين أمام المدفأة، وبذلك تستطيع أن ترى السفينة في كامل سنائها"

ووافق "ستير فورث" على ذلك، لكنه قال لي:

– لست أريد أن يعلموا أننا هنا.. لتكون المفاجأة أمتع.

ووافقته بدوري على ذلك، ثم قال لي: "تستطيع أنت في خلال فترة الانتظار حتى ذلك الموعد أن تزور مربيتك الطيبة، وتمضي معها بضع ساعات"

فقلت له: "هذا اقتراح جميل أيضا، وتستطيع أن تأتي لتأخذني من

عندها.. وسترى أن صيتك قد سبقك إليها، وأنك سوف تستقبل عندها مثلي تماما..!"

فقال: "سأذهب حيثما تريد. وما عليك إلا أن ترشدني إلى البيت.. وفي خلال ساعتين سأقدم نفسي على الصورة التي تفضلها، سواء العاطفية أو الهزلية.."

أوضحت له كيف يصل إلى بيت مستر باركيس التاجر في بلندرستون.. ثم تركته بخطى خفيفة وقلب مبتهج إلى حد أني كدت أوقف الناس في الشوارع كي أصافحهم بحرارة، ومررت أولا على الخياط القديم الذي كنت أعرفه، وفي أثناء حديثه معي ذكر أن عاملته الأولى ابنة أخي امرأة كانت في خدمتنا فصحت به: "أتقصد أنها ابنة أخي السيدة باركيس.. أعني أنها الآنسة الصغيرة اميلي؟"

فقال: "نعم هي لكنها الآن لم تعد صغيرة.. إن كل نساء المنطقة يشعرن بغيرة جنونية منها لجمالها الفتان"

وكانت ابنة الرجل واقفة تسمع، فهمت بأن تحتج على ذلك الوصف، ولكنه أسكتها. وقال لي وهو يشير إلى باب من الزجاج: "انظر.."، وإذ ذاك رأيت الحسناء الشابة عاكفة على عملها.. وكانت في الواقع مخلوقة فاتنة ذات عينين زرقاوين تتميزان بصفاء ونقاء نادرين.. واقترح علي الخياط أن أدخل وأتحدث إليها. فقلت له:

– ليس لدي وقت الآن ولكن إذا ذكرت لي الساعة التي تنصرف فيها

فسوف أذهب لرؤيتها عند عمها الليلة وإذ تزودت بالمعلومات المطلوبة مضيت في اتجاه منزل باركيس.. وكانت هي نفسها التي فتحت لي الباب. لكنها لم تعرفني، حتى حين ابتسمت لها.. والواقع أننا رغم مكاتباتنا المتبادلة التي لم تنقطع، لم نلتق منذ سبعة أعوام وسألتها بصوت حاولت أن أجعله جافا: "هل مستر باركيس موجود يا سيدتي؟"

فأجابت: "نعم لكنه في الفراش.. مريض بالروماتيزم"

فقلت: "هل يذهب قريبا إلى بلندرستون؟"

قالت: "نعم.. حين يشفى"

ولما وجدت أنها لم تعرفني بعد، قلت لها: "حسنا يا سيدتي. وهل السيدة باركيس ستذهب أيضا إلى بلندرستون؟".

وبدت عليها الدهشة من إلحاحي، فنظرت إلي بشئ من الانتباه.. بينما استطردت أنا: "لقد جئت لأسأل عن منزل يطلقون عليه اسم لاروكري"، فرجعت خطوة إلى الخلف، ثم رفعت ذراعيها.. كأنما لتتلقاني بينهما، فهتفت بها: "بيجوتي". وهتفت هي: "طفلي العزيز"..

وتعانقنا ونحن نبكي بدموع ساخنة غزيرة.. ثم بدأت هي تضحك من الفرح.. وعادت فبكت من جديد حين ذكرت تلك التي كانت تشعر بالفخر والسعادة لرؤيتي ثم صارت لا تملك أن تضمني إلى صدرها! سبق أن مررت بمثل هذه الانفعالات، ولا أذكر أنني ضحكت وبكيت في وقت معا خلال حياتي كلها مثلما فعلت في ذلك الصباح..

وقالت لي بيجوتي أخيرا: "ما أعظم ما سيسر باركيس برؤيتك.. تعال معي إلى حجرته!"

وصعدت معها، واستقبلت من جانب زوجها المريض كما توقعت بحماسة شديدة، وطلب الرجل من بيجوتي أن تحتجزني لتناول الغداء معهما، وأعطاها جنيها كي تعد طعاما ممتازا.. وقد قبلت دعوتهما ومهدت الجو لاستقبال ستير فورث، فلما وصل فعلا بعد قليل، استقبل كما توقعت بترحيب واغتباط. وقبل بدوره أن يبقى للغداء.

وحين غادرنا آل باركيس كان إعجابهم تاما بروحه المرحة ودعابته الفكهة التي يكيف بها نفسه حسب الجو الذي يوجد فيها!. ولم أكن أحسب وقتئذ أن ذلك كله كان مصطنعا بقصد الاستمتاع باللحظة الحاضرة، ونسيان الماضي، وتجنب التفكير في المستقبل.

وكانت الريح تعصف في تلك الليلة وتنوح نواحا أشد من نواحها في المرة الأولى حين زرت سفينة "مستر بيجوتي".. فقلت لصديقي:

– يا له من مكان موحش، أليس كذلك يا ستير فورث؟

فقال لي: "لكم يبدو غريبا في الظلام، ولاسيما مع هذا الهدير الصاخب!.. إن البحر يزمجر كالأسد إذ يبحث عن فريسة، وكأنه يريد ابتلاعنا!". ثم سألني: "أهذه النقطة المضيئة التي أراها تبرق هي السفينة التي تتحدث عنها؟" فلما أجبت بأنها هي نفسها، واصل حديثه قائلا: "إنها إذن السفينة التي رأيتها في الصباح، وقد جئت إليها رأسا بوحي الغريزة".

وصمتنا قبل أن نصل إلى الباب، وكان ينبعث منه ضجيج من الأصوات، يعقبها تصفيق في اللحظة التي دخلنا فيها. ووجدنا في الداخل اجتماعا حافلا: الأرملة العجوز تصفق.. ومستر بيجوتي متهلل الطلعة فرحا يضحك بكل قواه، وقد فتح ذراعيه كأنما ليحتضن فيهما الصغيرة أميلي.. و"هام" يمسك بيده إميلي وقد تخطفه السرور والاضطراب، وهو يتأملها بإعجاب.. أما الفتاة التي أحمر وجهها فرحا وخجلا، فقد همت بالارتماء على عمها.. لولا أن رأتنا داخلين فتوقفت.

واستقبلنا كل واحد من الموجودين استقبالا مغايرا: فصاح هام حين تبين شخصي: "مستر دافي.. إنه مستر دافي".. وامتدت جميع الأيدي نحونا مصافحة وتكلم الكل في وقت واحد.. وكان مستر بيجوتي فخورا وسعيدا، إلى حد أنه لم يجد مزيدا يقوله أو يفعله فراح يشد على أيدينا المرة بعد المرة وقد بدت عليه فرحة الظفر بحيث كان منظره ممتعا حقا.. وأخيرا صاح: "إن رؤية شابين وسيمين مثلكما هذه الليلة في منزلي لشئ خارق للمألوف.. تعالى يا عزيزتي إميلي.. هذا صديق مستر دافي. هذا هو الشخص الذي حدثناك عنه.. جاء مع مستر دافي ليراك في أسعد ليالي الحياة بالنسبة لعمك".

وكانت الفتاة قد اقتربت منه، فتناول وجهها بين راحتيه الكبيرتين، وعانقها أكثر من عشر مرات قبل أن يدعها تفلت من بين ذراعيه.. وحين اختفت من المكان روى لنا كيف أنها – قبل دخولنا مباشرة – قررت آخر الأمر أن تقبل هام زوجا لها، بعد أن قدرت الحب الذي يكنه لها منذ زمن بعيد.. ثم أضاف العم قائلا:

– لكما أن تدركا مبلغ الفرح الذي سببه لي هذا النبأ، فإنني أحب هذين الصغيرين كما لو كانا ولدي حقا.. وقد ربيتهما، ورأيت أحدهما يصبح رجلا شريفا ذا قلب واثق مخلص، والأخرى تتفتح مثل زهرة جميلة وطيبة أيضا.. وقد كنت على استعداد لأن أضحي بحياتي في سبيلها لو اقتضى الأمر. ولطالما تساءلت في انزعاج عن مصيرها لو ابتلعتني إحدى العواصف يوما مع قاربي.. لكنني الآن مطمئن، فقد صار لها من يحميها ويحبها في آن واحد.

وأردت أن أجد الكلمات المناسبة للرد، لكني تلعثمت، فتولى ستيرفورث عني هذه المهمة وقال لمستر بيجوتي:– "أنت رجل شجاع شهم، تستحق السعادة التي تحسها الليلة.. وإني لأهنئك من كل قلبي".. ثم أردف وهو يشد على يد "هام" أيضا: "أهنئك أنت أيضا أيها العزيز".

والتفت مرة أخرى إلى المستر بيجوتي قائلا: "لست أريد أن أثقل عليك الليلة يا مستر بيجوتي. وينبغي أن أذهب الآن إلا إذا نجحت في إعادة ابنة أخيك اللطيفة ويحسن أن نحجز لها هذا الركن القريب من المدفأة".

ثم أشار نحوي قائلا: "أجج النار في المدفأة يا دافيد"..

لكن إميلي لم تعود إلا بعد أن أحضرها هام بنفسه. ولما جاءت، بدا عليها الارتباك والخجل.. لكنها لم تلبث أن استرددت ألفتها حين رأت ستير فورث يخاطبها باحترام، بل يتحدث في طلاقة إلى عمها عن السفن والمد والجزر وصيد الأسماك، ويبدي ميله إلى البحرية وكل ما يتصل بها.. ولم تتكلم هي إلا نادرا.. كانت تنظر وتصغي باهتمام زاد وجهها جمالا وفتنة. وحينما يروي ستير فورث مغامرة محزنة تبدو على

طلعتها شتى الانفعالات العنيفة، فإذا سرد قصة فكهة ضحكت من قلب صاف إلى حد يجعلنا نشاركها ضحكها ومرحها.

وأحسب أن الليل كان قد انتصف حين انفضت السهرة، فافترقنا وقلوبنا مفعمة غبطة وانشراحا، وأضاءوا لنا الباب عند خروجنا، وهتفت بنا اميلي بصوتها الفضي ناصحة لنا بأن نتبين جيدا مواضع أقدامنا، فرد ستيرفورث بعبارة شكر رقيقة، وقال لي وهو يتأبط ذراعي أثناء سيرنا: "يا له من جمال خارق، ومكان رائع، ورفقة ممتعة. إنني أحس بمشاعر لم أعهدها من قبل".

فقلت له: "لقد كان من حسن حظنا أيضا أن وصلنا في اللحظة المناسبة كي نشهد سعادتهم التي أضفاها عليهم مشروع الزواج المقبل.. ألا ما أمتع رؤية فرحتهم والمشاركة فيها." ولكنه قال لي: "إن الفتى ثقيل الظل إلى جانبها!"

صدمتني هذه العبارة، ولاسيما بعدما أبداه ستيرفورث أثناء السهرة من تهنئة هام واحترامه وتقدير مزاياه، فنظرت إليه ساهما، وحين رأيت عينيه ضاحكتين اعتقدت أنه كان يمزح.. فقلت له: "أنا واثق بأنك تأثرت من عاطفة هذا الفتى، وأنه استثار حساسيتك، حتى لقد رفعت الكلفة بينك وبينه هكذا سريعا.. وإنني لأعجب بك وأحبك من أجل هذا عشرين ضعفا عن ذي قبل"

وإذ ذاك توقف، ثم قال وهو يثبت نظره في عيني:

– أعتقد أنك تتكلم جادا، وأنك طيب القلب.. ولكم أودأن نكون جميعا هكذا مثلك.

وعدنا إلى "يارموث" ونحن ندندن بالغناء..

الفصل السابع

قضيت مع ستيرفورث أكثر من خمسة عشر يوما في ذلك المكان، و كان يحدث أحيانا أن يذهب كل منا في طريقه، وذلك لسببين: أولهما أن ستيرفورث كان على النقيض مني بحارا بارعا، فكان يخرج في بعض الأحيان مع مستر بيجوتي في زورقه إلى عرض البحر بينما أبقى أنا على البر.. والسبب الثاني أنني كنت أذهب وحدي كثيرا إلى بلندرستون بدافع الرغبة في إحياء ذكرياتي القديمة في الأمكنة التي عشت فيها شطرا من صباي.. وأثناء فترات غيابي لم أكن أعبأ بما يفعله صديقي، إذ كنت واثقا بأنه سيعرف كيف يجد ألف وسيلة ووسيلة لقتل الوقت، وعندما أعود كنت أجد ستيرفورث ينتظرني عند رصيف المعدية.. وفي ذات مساء وصلت متأخرا بعض الوقت فوجدته في منزل بيجوتي جالسا إلى جوار المدفأة وقد بدا عليه الهم والاستغراق في الفكر بحيث لم يشعر بدخولي.. وحين وضعت يدي على كتفه، ارتعد وقال لي شبه غاضب:

– "إنك تأتي إلي متلصصا مثل طيف الانتقام"

فقلت له متعجبا: "أكان ينبغي أن أنذرك بحضوري؟.. ما الذي يشغل فكرك هكذا؟"

فقال: "إني أتأمل أشكالاً ووجوهاً في النار"

فقلت له: "إذن دعني أراها معك".

ثم جلست إلى جواره صامتا، بينما أخذ هو يحرك الحطب المتوهج في المدفأة فيتطاير منه الشرر.. وقال لي بعد قليل: "إنك تأخرت.. أين كنت؟"

فقلت: "كنت في المكان المألوف.. وأنت؟"

فقال: "لقد ظللت جالسا هنا أفكر في كل هؤلاء القوم الذين وجدناهم مرحين ليلة وصولنا، وسوف يتفرقون يوما، فيموت منهم من يموت، ويشقى منهم من يشقى".

وقبل أن أفيق من دهشتي لهذه الأفكار السوداء التي تساور ذهنه، واصل كلامه فقال وفي صوته ما يكشف عن أسى مكتوم: "كان ينبغي أن يكون لي والد حكيم صائب الرأي منذ عشرين عاما"

وهنا هتفت به في تأثر: "ستير فورث.. ماذا بك أيها العزيز؟"

فصاح بلهجة المنفعل: "كيف أتمنى من صميم قلبي لو أحسن توجيهي.. كنت أتمنى أن أستطيع توجيه نفسي بنفسي وجهة أحسن"

وبقيت صامتاً ذاهلاً لفرط دهشتي من هذه الحالة المغايرة لطبيعته، ثم استطرد هو فقال وهو يتكئ على حاجز المدفأة: "كان الأفضل لي أن أكون مثل ذلك الفقير المعدم بيجوتي .. أو مثل ابن أخيه الثقيل .. وإذن ما كنت لأتعرض لما تعرضت له من عذاب مرير في ذلك الزورق اللعين`"

تملكتني الدهشة إلى حد أني لم أجد كلاماً أجيبه به أول الأمر..

وحين تمالكت نفسي جعلت أهدئ من ثائرته، وسألته عما بعث في نفسه هذا الشجن على غير انتظار، فضحك في عصبية وأجاب قائلاً:

– لا شئ.. ألم أقل لك ونحن في الفندق في لندن، إنني أسوأ رفيق لنفسي؟.. لقد أصابني كابوس منذ برهة وأنا يقظ.. أحسست بالخوف من نفسي، وأكرر لك أنه كان خيراً لي لو كان لي أب حازم وصائب الرأي.

وكانت تبدو على وجهة سمة من الكآبة الصارمة لم أرها عليه من قبل.. ثم صاح بغتة في مرح: "هيا بنا نتناول الغداء"، وفيما نحن نسير في الطريق صامتين، بدأ هو الحديث فجأة قائلاً:

– إذن.. سنودع غداً هذه الحياة المرحة الطليقة؟

فقلت له: "لقد حجزت أمكنتنا في مركبة السفر كما اتفقنا"

فهز رأسه أسفاً وقال: لقد كدت أنسى أن في الحياة شيئاً آخر غير التهادي على وجه المياه. وأعترف بأنني ذو نزوات، لكنني قدير على أن أضرب الحديد بشدة وهو ساخن. أتعلم أنني اشتريت زورقاً هنا؟ وعاودتني الدهشة لهذا النبأ المفاجئ العجيب فصحت به:

– يا لك من فتى غريب الأطوار! أتشتري زورقاً وأنت قد لا تعود إلى هنا مرة أخرى؟

فقال حائرا: "لست أدري. لقد انتابني تعلق مفاجئ بهذا المكان، وعلى أية حال فقد اشتريت الزورق، وسوف يعني به مستر بيجوتي في غيابي"

فهتفت به فرحا: "ستيرفورث.. إنني أفهمك الآن.. لقد أردت أن تدخل السرور على قلب الرجل الشجاع.. كيف أصف لك رأيي في كرمك"

فاحمر وجهه، ثم قال: "إن الزورق في حاجة إلى طلاء، وسأعهد إلى خادمي بأمر العناية به.. هل قلت لك إنني استدعيت خادمي؟"

وإذ أجبته بالنفي وإبداء دهشتي لذلك، استطرد فقال:

– إنه وصل هذا الصباح يحمل لي خطاباً من أمي.. وهو الذي سيتولى إعداد الزورق وتغيير اسمه.. وسيكون اسمه الجديد اميلي الصغيرة..

وفي هذه اللحظة ظهر هام قادماً نحونا ومعه إميلي خطيبته، فغمغم ستير فورث قائلا: "ها هي اميلي الأصيلة ومعها فتاها.. إنه فارس خدوم حقاً لا يكاد يتركها لحظة".

وكان هام يبدو فظاً إلى حد ما، لكن وجهه ينطوي على مزيج من الصراحة، والإخلاص والاعجاب بإميلي بحيث رأيتهما متناسبين تماما. وحين استوقفناهما لكينتشرثر معهما، انتزعت الفتاة ذراعها من يد خطيبها، لفرط خجلها، وتورد وجهها وهي تصافحنا. وحين استأنفت سيرها معه لم تتأبط ذراعه بل سارت إلى جانبه في حياء ظاهر.

وفي المساء، تناولت العشاء مع ستيرفورث، ثم عدت إلى السفينة، فلما بلغتها وجدت هام يذرع المكان أمام الباب، وقال لي:

– إن إميلي تتحدث مع زميلة قديمة لها من أيام الدراسة تدعى مارت عاشت فترة حياة بوهيمية مضطربة ثم جاءت الآن تطلب مساعدتها كي تبدأ حياة أفضل..

وكان الفتى يحمل في يده كيساً قديماً من التيل، فلما خرجت إميلي مع صديقتها، وضعه في يدها وهو يقول لها: "هذا من أجل مارت"، وعدنا نحن جميعاً إلى السفينة. وهناك أدهشني أن أميلي سرعان ما اعتمدت رأسها بين يديها وأجهشت بالبكاء.. وقال لها هام وهو يربث كتفها ملاطفا: "لا تبكي يا حبيبتي".

فأجابت وهي ما تزال تجهش:

– أواه يا هام. إنني لست طيبة كما كان ينبغي أن أكون..

فقال لها: "بل إنك لكذلك يا حبيبتي"

ولكنها عادت تقول: "كلا .. أنا بعيدة عن أن أكون كذلك.. إنني أستغل رقتك وأعذبك بلا انقطاع .. إنني قد أتغير أحيانا فأبدو متكدرة المزاج.. أما أنت فعلى عكس ذلك تماما.. وهل ينبغي أن أفكر في شئ آخر غير إسعادك؟"

فقال لها هام: "لكنك تسعدينني فعلا يا حبيبتي.. أنا سعيد ما دمت أراك، بل أنا سعيد دائما لأني أفكر فيك دائما".

فقالت له إميلي: "هذا لأنك طيب القلب لا لأنني أسعدك حقا.. ليتك أحببت فتاة أفضل مني وأقدر على الوفاء بحقك"

فقال لها هام في صوت خفيض: "يا لقلبك الصغير المسكين .. لقد بلبلت مارت أفكارك".

واستطردت إميلي فقالت مخاطبة بيجوتي وهي مازالت تبكي:

– دعيني أضع رأسي على صدرك يا عمتي!. لكم أحس الليلة أنني تعسة! إني لست طيبة. أنا أعلم ذلك فأخذتها بيجوتي بين ذراعيها، لكنها استمرت تصيح في لوعة: "أواه يا عمتي. أعينيني. وأنت يا هام، حاول بدورك أن تساعدني.. وأنت أيضا يا مستر دافيد، أتوسل إليك، أريد أن أصبح فتاة أفضل وأكثر عرفانا بالجميل.. أريد أن أشعر بلذة كوني زوجة رجل شجاع، وأن أعيش معه حياة هادئة يرفرف عليها السلام".

والتففنا جميعا حولها، ونجحنا في تهدئتها شيئا فشيئا حتى ابتسمت أخيرا، وهي ما تزال مضطربة، وجففت بيجوتي دمعها وهي توصيها بأن تصطنع المرح، حتى إذا ما عاد عمها لم يساوره الشك في شئ مما حدث.. وإذ ذاك نهضت إميلي، وأخذت ذراع خطيبها بين يديها ثم اتكأت عليه، كأنما وجدت فيه أخيرا ما كانت تنشده من عون وحماية.

* * *

كان علينا في اليوم التالي أن نمر على جميع أصدقائنا القدامى والجدد لمناسبة سفرنا، وكان مستر باركيس أشدهم تأثرا لفراقنا، وقد دعونا جميعا مكررين عبارات الأسف لذلك الفراق وتبعنا خادم ستير فورث إلى العربة فأوصاه سيده بأن يبذل أقصى عنايته لتنفيذ المهام

الملقاة على عاتقه، وبعد أن صمت كلانا، وقد استغرقنا في أفكارنا الخاصة.. بدأنا نتحدث عن مشروعاتي للمستقبل، فقلت لصديقي:

- إن عمتي كتبت إلي تقترح أن أصير محاميا.

فأجابني ناصحا بأن أمتهن هذه المهنة، وأن أعد نفسي لها بالالتحاق بكلية القانون المدني، وحين لحقت بعمتي في الفندق الذي عينته لي في لندن قلت لها: "إنني أرحب بدراسة القانون، على ألا تكلفك نفقات باهظة فالواقع يا عمتي أنك أنفقت الكثير حتى الآن على تعليمي، وكنت كريمة معي إلى درجة تجعلني أجد غضاضة في أن أتقبل منك تضحية مالية جديدة.. ولاسيما أنه توجد وظائف كثيرة أستطيع فيها أن أحصل منذ البداية على مرتب يكفي مطالبي الضرورية، فهلا ترين من الأفضل أن أجرب إحداها؟.. إنني أكلمك ببساطة وصراحة، كما كنت خليقا أن أكلم أمي، ألست أمي الثانية؟".

فأجابتني: "لا أريد العودة إلى الماضي يا بني. إنني في الواقع لم أقم نحو أبيك وأمك بكل ما كان ينبغي أن أقوم به، بل أنا أعتقد أنني كنت مقصرة حتى معك أنت، وذلك لخيبة الأمل التي أصابتني عند مولدك. ولا شك أنك منذ لجأت إلي كنت مبعث سروري.. لقد تبنيتك ماديا وروحيا فأعطني حبك فقط.. احتمل بصبر وجلد نزواتي وأهوائي.. وبذلك تكون قد فعلت من أجل امرأة عجوز شقيت في الشطر الأول من حياتها، أضعاف ما فعلت هذه المرأة العجوز من أجلك".

وهكذا.. توجهنا في اليوم التالي إلى الكلية. فقبل قريب لعمتي فيها

يدعى مستر سبنلو أن يلحقني بها لمدة شهر على سبيل التجربة.. ومن هناك ذهبنا نبحث عن مسكن مفروش يصلح لي، فوجدنا بغيتنا عند سيدة اسمها كراب، وفي الليلة ذاتها كتبت خطابا طويلا إلى أجنس ويكفيلد. وكان يسعدني لو استطعت أن أقص الأمر كله على ستير فورث أمام عمتي، لكنه لم يظهر -لسوء الحظ- قبل سفره إلى دوفر بالمركبة.

واجتمع لدي بذلك كل ما أبدأ به حياتي الجديدة بداية طيبة.. ومع ذلك فقد بدأتها أسوأ بداية.. فقد أغراني ستير فورث وأصدقاؤه ذات ليلة بالإفراط في شرب الخمر والتدخين حتى ثملت، ثم ذهبنا إلى المسرح وأنا على هذه الحال، وإذا بي أجد نفسي وجها لوجه مع آجنس. ولم تخف الفتاة استياءها، ولكنها طلبت مني أن أعود مع أصدقائي إلى حجرتي، ففعلت ذلك على الفور، من فرط التأثير القوي الطيب الذي كان لها علي.

وفي صباح اليوم التالي صحوت من نومي وأنا أحس في رأسي صداعا شديدا، وفي نفسي خجلا قويا من مسلكي، وبعد قليل تسلمت خطابا من اجنس تدعوني فيه لمقابلتها، وذهبت إليها يتجاذبني الارتباك والغبطة، وقد صح عزمي على أن أستعيد مكانتي في نفس الصديقة التي أكن لها احتراما كبيرا، وكنت غاضبا على نفسي من أجل مسلكي الشائن في الليلة السابقة إلى حد أني لم أستطع حجز دموعي.. أما هي فقد خففت ما بي بقدر طاقتها، ولما صارحتها بأني أعدها ملاكي الطيب، أجابت على الفور قائلة:

– إذن.. من واجبي أن أجعلك على حذر من ملاكك الشرير.

فسألتها: "أتعنين ستير فورث؟".

فقالت: "نعم.. إنني أعنيه هو لا غيره!".

فقلت لها: "إنك على خطأ يا آجنس. إنه لي نعم الصديق المرشد المعين.. ومن الظلم أن تحكمي عليه في ضوء الحالة التي رأيتني عليها في الليلة الماضية"

فقالت: "لست أحكم عليه في ضوء حادث الليلة الماضية، وإنما في ضوء أشياء كثيرة قد لا تبدو أهميتها للوهلة الأولى، لكنها إذا جمعت تنم عن خلق معين شديد الخطر عليك، لما له من تأثير في خلقك. وأنا موقنة أن الأمر يبدو على هذه الصورة لكل من يبغي لك الخير"

وأنهينا الحديث في الموضوع عند هذا الحد.. لكنها عادت فسألتني: "هل رأيت يوريا؟"

فأجبتها: "يوريا هيب؟.. كلا!. أهو في لندن؟"

فقالت: "إنه يأتي إليها كل حين، الأمر الذي لا أتوقع من ورائه خيرا بالنسبة لنا"

وسألتها عما تعنيه بقولها هذا، فأجابت بلهجة تشوبها المرارة:

– أعتقد أنه سوف يصبح شريك أبي عما قريب.

فقلت متعجبا: "أهذا الفتى المتزلف التافه يصبح شريكا لأبيك؟!"

فقالت: "نعم. لقد جعل نفسه شيئا فشيئا في مركز المساعد الذي لا غنى لأبي عنه، بعد أن استغل ضعفه..

وهو الآن ذو سلطة هائلة في المكتب بحيث أخشى أن يسئ استغلالها" ثم صاحت الفتاة وقد عجزت عن قمع دموعها: "لكم تغير أبي المسكين في الفترة الأخيرة"

فاشتد تأثري، وقلت لها: "أرجو منك يا أختي العزيزة ألا تبكي". لكنها قالت لي:

– حسنا!.. وأنا بدوري أرجو منك – بغض النظر عن النفور الذي يوحي به إليك يوريا – أن تعامله معاملة ودية. افعل ذلك من أجل أبي ومن أجلي أنا ووعدتها، للمرة الثانية.. فدعتني لتناول العشاء معها في اليوم التالي. وكم كان سروري حين تعرفت بين المدعوين إلى طالب يدرس القانون اسمه "ترادل"، ظهر أنه زميلي القديم في مدرسة سالم.. وهكذا أتيحت لي الفرصة كي أجدد صلتي به، وأجد فيه الفتى الطيب الخجول الظريف الذي عهدته فيما مضى، وقدمته إلى آجنس، باعتباره زميلي القديم.. وحين تهيأ للإنصراف مبكرا، لارتباطه بموعد سابق، تبادلت وإياه عنوانينا، وتواعدنا على اللقاء في أقرب فرصة.

وذكرت لي آجنس أنها سترحل عن لندن في القريب العاجل.. فمكثت معها في تلك الليلة أطول مدة ممكنة، أمتع نفسي بحديثها وغنائها.. وقد ازددت شعورا بأنها ملاكي الطيب حقا، وحين انصرفت في ساعة متأخرة من الليل، التقيت فجأة بمن كنا نتحدث عنه: يوريا هيب..

وقد فكرت أول الأمر في أن أتظاهر بأني لم أره، لولا أني تذكرت ما قالته لي آجنس بصدده، فدعوته إلى تناول قدح من القهوة في مسكني.. وإذ ذاك قال لي بزلفاه المعهودة:

– حقا يا مستر كوبرفيلد أني لست أطمع في أن تزعج نفسك بدعوة شخص متواضع مثلي إلى مسكنك.

– ليس في الأمر أدنى إزعاج .. هلا جئت معي؟

– هذا من دواعي غبطتي.

وطيلة الطريق لم أحدثه بكلمة.. كنت أتعجل اللحظة التي يفرغ فيها من تناول قدح القهوة كي أتخلص منه بأسرع ما أستطيع.. وعندما رأى مسكني أخذ يلهج بعبارات الإعجاب به في مغالاة أغاظتني.. وكرر مظاهراته السخيفة حين قدمت له القهوة، حتى لقد شعرت بميل شديد إلى أن أسلقه بمحتويات الإناء الساخن، ثم سألني عما إذا كنت قد علمت بالتغير الذي طرأ على مركزه.. وكان يتكلم بلهجة جعلتني أعتقد أن ثعبانا تقمصه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.. علاوة على احمرار عينيه واختلاج أنفه، اللذين زاداني بغضا له.. وبعد حين انتقل إلى الكلام عن مستر ويكفيلد زاعما أنه كان له نعم الناصح والمشير، وأنه جنبه كثيرا من المآزق والكوارث، في حين كان في استطاعته أن يحطمه ويسحقه تحت إبهامه كالحشرة، وقرن كلامه بالتمثيل فضغط على مائدتي حتى أن خشبها، وإذ ذاك أحسست بالاشمئزاز من ضعته إلى حد أن كدت أصفعه، لكن الأسوأ من ذلك أنه وجد الجرأة على أن يسر إلي بأنه يحب

آجنس، ويأمل أن يستطيع التأثير عليها حتى تحبه بدورها وتقبل الزواج منه.. وعند هذا لم أطق صبرا فتناولت محرك الجمر الذي احمر وتوهج من نار المدفأة، وفي نيتي أن أجعله يخترق جسده، لولا أن خيال آجنس تدخل في الوقت المناسب فوقف حائلا بيني وبينه.. وعندئذ أدركت أنها حقا ملاكي الطيب.

وهكذا احتملت بكل صبر وجلد محاضرات النفاق والزلفى من لسان ذلك الحيوان ذي الشعر الأصفر، حتى بلغت الساعة الواحدة صباحا.. ولكنني في اليوم التالي طلبت إلى مديرة مسكني أن تحرص على تهوية المسكن أقصى مدة ممكنة، فقد أحسست كأن بوريا قد سمم جوه بأنفاسه.

الفصل الثامن

شعرت بشئ من الوحشة بعد سفر آجنس.. وزادت الوحشة عند عودة ستير فورث إلى اوكسفورد، وإن كنت لم آسف على رحيله إلا قليلا، لتأثري بالكلمات التي قالتها لي، ولاحظ مستر سبنلو وحدتي، فأعرب عن أسفه لعدم استطاعته دعوتي إلى بيته لأنه أرمل وليس لديه من يعد البيت للضيافة والاستقبال، ومازال أثاث البيت مبعثرا في انتظار عودة ابنته التي أتمت تعليمها. وبعد حوالي أسبوعين قال لي: "يسعدني أن أستقبلك في داري في نوروود.. وأن تحل ضيفا فيه من يوم السبت القادم حتى يوم الاثنين الذي يليه".. فقبلت مرحبا، وجاء بنفسه في "دوكاره" ليأخذني معه، وقطعنا الرحلة كلها نمزح ونضحك.. ثم وقفنا أمام حديقة رائعة: أبسطة من القطيفة الخضراء، وباقات من الأشجار المنسقة أجمل تنسيق، وممرات مطرزة بالأزهار، و تعريشات من الخشب لا تكاد تبين من بين الورود التي تكسوها، وكان البيت ساطعا بالأضواء البراقة، وقد زخر بالمدعوين، وازدحمت حجرة الأمانات فيه بما أودعوها من القبعات والمعاطف المختلفة الأشكال والألوان.

سأل مستر سبنلو خادمه: "أين دورا؟". فقلت لنفسي: "دورا؟ يا له من اسم جميل".. ثم تبعت الخادم إلى غرفة صالون صغيرة.. وهناك قدمني مستر سبنلو إلى ابنته.

شعرت منذ النظرة الأولى إلى الآنسة دورا بأن جمال الوجود كله قد

تمثل فيها.. وبقيت هنيهة وأنا أحدق مأخوذا بسحر عينيها الزرقاوين ووجهها المشرق البسام.. ثم سمعت صوتا يقول: "لقد سبق أن رأيت مستر كوبرفيلد".. ولكن الصوت لم يكن صوت دورا وإنما صوت أمينة سرها التي لم تكن سوى الآنسة مردستون.. وكانت هذه المفاجأة جديرة بأن تذهلني، ولكني كنت ما زلت غارقا في ذهولي الأول الذي أوقعتني فيه رؤية دورا وحين تمالكت نفسي، قلت للآنسة مردستون: "لعلك بخير يا آنسة؟. ولعل شقيقك بخير أيضا؟" فردت شاكرة، ذاكرة أنهما في أحسن حال وكانت قد لحظت دهشة مضيفنا مستر سبنلو، فالتفتت إليه قائلة:

– إنني أعرف مستر كوبرفيلد كما يعرفني منذ طفولته، وقد فرقت بيننا الظروف بعد ذلك، ولو أنني لقيته دون أن أسمع اسمه لما عرفته.

فعقبت أنا على ذلك: "أما أنا فقد عرفتها فورا". وكنت في ذلك صادق كل الصدق.. فإن الظروف السيئة التي عرفتها أثناءها كان من العسير أن تمحي صورتها من ذهني.

وقال مستر سبنلو يوضح الموقف: "لقد تفضلت الآنسة مردستون فقبلت مهمة الرفيقة لا بنتي دورا، بعد أن فقدت أمها".

وقد فهمت فيما بعد، من تقطيب دورا في بعض المناسبات، أنها لا تولي رفيقتها وحاميتها أي قدر من صداقتها أو ثقتها. وكان تقطيبها هذا مما زادها فتنة وروعة. وأيا ما كان الأمر فلم أجد الوقت الكافي لإطالة التفكير في الأمر، إذ دق جرس العشاء بعد قليل. فمضت كل منهما لتهيئ نفسها للمآئدة، وبقيت أنا خلال ذلك مشغول الفكر بتلك

المخلوقة العذبة التي غزت قلبي بغتة على هذه الصورة! وعندما جلسنا حول موائد العشاء، استأثرت الفتاة بكل اهتمامي.. وجدت لها صوتا جذابا، وضحكة فضية، وحديثا شائقا.. وبعد العشاء أخذتني الآنسة مردستون إلى ركن قصي لتتحدث إلي، وبعد أن ذكرتني بعلاقتنا ابان طفولتي، وصرامتها معي –التي وجدت الجرأة على أن تتحدث عنها– طلبت مني ألا أشير قط إلى الماضي أمام القوم الذين لا تهمهم معرفته. وقبلت اقتراحها دون مناقشة، على الأخص كي أستطيع العودة بأسرع ما يمكنني إلى الفتاة التي أعجبتني، وكانت تتأهب لغناء بضع مقطوعات فرنسية بمصاحبة القيثارة. وقد طربت لغنائها، بحيث رفضت جميع صنوف المرطبات التي عرضت علي، الأمر الذي أثار دهشة الخدم الذين كانوا يطوفون بها.. وحين غادرت هي الصالون غادرته أنا في أثرها، وظللت مستغرقا في التفكير في أمرها، ولم يدهشني حين عدت إلى غرفتي أن طالعتني في المرآة هناك هيئتي التي كنت عليها طول السهرة.. وهي هيئة تدل على منتهى الذهول..

وفي اليوم التالي، صحوت مبكرا، وغادرت غرفتي لأقوم بجولة صغيرة أرفه فيها عن نفسي.. وفيما كنت أقوم بهذه الجولة، وصورة دورا تحتل كل صفحات فكري، إذا بي أفاجأ في أحد المنعطفات بظهورها أمامي!. وكان معها كلبها الصغير "جيب"، وغمرتني نشوة عجيبة لهذه المصادفة السعيدة، وقلت لها:

– أراك قد بكرت في الخروج يا آنسة؟!

فقالت: "إنه لأمر يجلب الضجر أن أبقى في البيت.. ومما يؤسف له أن الآنسة مردستون من الغباء بحيث تأبى أن تدعني أخرج في الصباح.. ولكن أبي وافقني على أن الصباح هو أجمل أوقات النهار.. ولعل هذا هو رأيك أيضا؟"

فقلت لها: "الواقع أن الصباح جميل جدا.. وأعتقد أنه الآن يبدو أجمل منه في أي وقت مضى.. بل هو أجمل مما كان منذ دقائق".

فقالت في بساطة محببة: "أهذه تحية أم تعني أن الجو تغير؟".

وكانت إجابتي من السذاجة بحيث احمر وجه "دورا" وحنت رأسها، فتدلت منه خصلات شعرها الذهبية، التي لم أرلها مثيلا من قبل.. ولن أرى، ثم تحدثنا بعد ذلك عن باريس، وعن كلبها، الذي يغار غيرة رهيبة من كل مخلوق يقترب منها فيكشر عن أنيابه الصغيرة البيضاء، مهددا متوعدا بالعض..

وسألتني الفتاة: "إنك لست على صلة ودية بالآنسة مردستون.. أليس كذلك؟"

فقلت في صراحة تامة: "نعم يا آنسة.. ولم تقم بيني وبينها صلة ودية قط".

فقالت: "إنها تبعث الضيق في الصدور.. لست أفهم كيف استطاع أبي اختيار مخلوقة مثلها.. إن "جيب" يستطيع حمايتي أفضل منها، أليس كذلك يا جيب؟ إن أبي يسميها أمينة سري، في حين أنها ليست

كذلك.. فإن الإنسان لا يستطيع أن يأتمن مخلوقة شرسة مثلها على سر، وإنما كل يضع ثقته فيمن يروقه، ونحن نعرف كيف نجد أصدقاءنا بأنفسنا، من غير حاجة إلى أن يفرضوا علينا فرضا.. ألست توافقني يا جيب؟".

وكان جيب يجيب عن كل سؤال توجهه إليه بهوهوة خافتة شبيهة بصوت البخار في إناء يغلي.. ثم استطردت دورا تقول:

– إنه لأمر قاس حقا، ألا تكون لفتاة أم طيبة حنون، بدلا من هذه المخلوقة العجوز الغبية مردستون التي تطاردنا وتتبعنا أينما ذهبنا، أليس كذلك يا جيب؟.. إننا لا نريد أن نبوح لها بأسرارنا، وسنظل سعداء برغمها.. لن نحاول كسب رضاها وسنغيظها بقدر استطاعتنا.. أم أنت لا تقرني على كلامي يا جيب؟

وفي أثناء سيرنا، كنا قد وصلنا إلى كشك زجاجي معد لتربية النباتات المرهفة، وإذا بالآنسة مردستون تخرج منه قائلة لنا:

– لقد كنت أبحث عنكما لتناول طعام الإفطار.

وأخذت بذراع دورا، وسرنا متباطئين، في خطوات كأنها خطوات المشيعين في موكب جنائزي، ولم أدر ونحن على المائدة كم قدحا من الشاي تناولت، لأن دورا هي التي أعدته.. ثم ذهبنا معا إلى الكنيسة، وكم يخجلني أنني كنت شارد الذهن أثناء الموعظة بحيث لم أفهم منها شيئا.

واستمر شرود ذهني ذاك بعد عودتي إلى لندن.. حتى لقد أثار

شكوك صاحبة البنسيون، فاضطررت إلى أن آخذ على نفسي عهدا أن أحرص في المستقبل على صون عواطفي من أعين الفضوليين. أغراني سروري برؤية ترادل بأن أذهب لزيارته في المسكن الذي أعطاني عنوانه.. أدهشني أن أجده يقطن حيا متواضعا، يتعرض المار فيه لأن يدق عنقه بسبب الحفرات المختلفة التي تتخلل أرصفته.. لكن الذي أدهشني أكثر من ذلك أني وجدته يقطن الطابق الثاني من منزل لم يكن سكان طابقه الأرضي سوى أصدقائي القدامى آل "ميكاوبر".. وعلمت أنهم صاروا أصدقاء ترادل. وكثيرا ما لجأوا إلى عطفه وإلى جيبه، وعندما وقفت على هذه المعلومات أثناء حديثي مع "ترادل".. عزمت على أن أزورهم عند نزولي من مسكنه، وكانت حجرة صديقي مؤثثة أثاثا متواضعا، لكنه نظيف مثل صاحبه، وقد تذاكرنا أحداث الماضي وذكريات مدرسة سالم، وبعد أن ضحكنا من الأشياء التي استدرت وقت حدوثها دمعنا، عرجنا على ذكريات السنوات التي انفصلنا خلالها كل في طريقه الخاص ثم انتهينا إلى حديث الأسرار العاطفية لقلبينا، فذكر لي ترادل أنه خطب فتاة من ديفونشير تنتمي إلى أسرة ذات عشرة أطفال، وأطنب في امتداحها.. ثم قال بفتوره المألوف:

– إن الزواج لا يمكن أن يتم قبل زمن طويل، لكني واثق من خطيبتي وقد اتخذنا الانتظار مع الأمل شعارا مشتركا.

وأبديت لصديقي إعجابي بالشجاعة والصبر اللذين طالما تحلى بهما.. وفجأة سمعنا طرقا على بابه، أعقبه دخول مستر ميكاوبر، ولم

يعرفني هذا لأول وهلة، لكنه جعل يتأملني برهة.. ثم هتف فجأة وهو يشد على يدي في حرارة:

– أهذا ممكن؟.. هل لي حظ رؤية كوبرفيلد مرة أخرى؟

ثم أطل من حاجز السلم وصاح مناديا زوجته:

– اصعدي بسرعة إلى مسكن مستر ترادل.

وجاءت مسز ميكاوبر، وصافحتني مرحبة بمثل الحرارة التي صافحني بها زوجها الذي قال لي: "إن كل إنسان تعرض له في حياته ساعات مظلمة، يبدو فيها أنه قد غلب على أمره بحيث لن تقوم له قائمة بعد ذلك، في حين يكون هو في حالة تحفز بتأهب فيها لمعاودة الانقضاض والتحليق.. أنا الآن في فترة من هذه الفترا، لكنك سترى كيف أنهض من كبوتي بعد زمن وجيز".

وعلمت أنه وأسرته قد لجأوا إلى ذلك الحي المتواضع فرارا من مطاردة دائنيهم في انتظار سنوح فرصة تمكنهم من تسديد ديونهم.. وقد فهمت من كلام مستر ميكاوبر أنه يتوقع تلك الفرصة في القريب، فاطمأنت نفسي عليه بعض الاطمئنان، ودعوت الأسرة و ترادل إلى تناول العشاء عندي بعد أيام.

ولم يكد المدعوين ينصرفون حتى سمعت أمام بابي خطوة مألوفة لدي، وثب قلبي فرحا لدي سماعها، بالرغم من تحذير آجنس: كانت خطوة ستير فورث، وهتف الشاب فرحا وهو يشد على يدي في تأثر:

– ماذا، أهكذا أجدك في أعقاب مأدبة؟. كيف حالك يا صاح؟

– بأتم خير.. لقد دعوت آل ميكاوبر الذين حدثتك عنهم، لتناول العشاء الليلة، ودعوت معهم شخصا آخر عرفه كلانا في مدرسة سالم.. ألا تذكر ترادل؟

– آه، هذا الفتى العذب؟. أين عثرت عليه؟

ورويت له قصة لقائنا فأصغي إلى في شرود، وهو يقلب الفحم في المدفأة ثم قال لي.. محولا دفة الحديث:

– أعندك شئ آكله؟.. إني آت الآن من يارموث.

– حسبتك في اكسفورد

– كلا بل كنت في البحر.. وهي أجمل متعة يقضي فيها المرء وقته.. – وهل مكثت طويلا هناك؟

– نحو أسبوع.

– وكيف حالهم جميعا.. هل تزوجت إميلي؟

– لم تتزوج بعد، ولست أعتقد أنها ستتزوج في القريب.. وعلى فكرة، عندي لك خطاب من مربيتك العجوز إن زوجها – وقد نسيت اسمه – في حالة سيئة وأحسب أن نهايته دنت.

وفيما نحن نتكلم، جلس هو إلى المائدة وشرع يأكل بشهية عظيمة. وانتهزت أنا تلك الفرصة كي أقرأ خطاب بيجوتي. وقد أنبأتني

فيه بأن زوجها في أسوأ حال، وأعربت لي عن حزنها الشديد على فقد الرجل الطيب الذي أذاقها السعادة الكاملة.. لكنها لم تحدثني بكلمة عن سهرها الطويل على تمريضه والعناية المتصلة التي بذلتها من أجله..

وقال ستيرفورث وقد رآني متأثرا مما قرأت:

– ماذا تنتظر؟. إن الشمس تغرب كل يوم، والناس يموتون في كل دقيقة، ونحن أنفسنا لن ننجو من هذا المصير المحتوم، فلا ينبغي أن يكون هذا سببا في أن تنهار نفوسنا، بل يجب أن نلقي بأنفسنا في المعمعة بكل جرأة، ونتخطى جميع العقبات والمثبطات حتى نربح السباق.

فسألته: "أي سباق؟"

فقال: "السباق الذي نحن فيه.. فإلى الأمام"

فقلت له: "أصغ إلى ياستيرفورث، إذا استطعت أن تخفف من غلوائك كي تسمعني، فدعني أخبرك بإنني قررت الذهاب لزيارة مربيتي القديمة، ليس هذا لأنني أستطيع أن أفعل لها شيئا في محنتها الحاضرة، وإنما لأن تعلقها بي يجعل لزيارتي إياها في هذا الوقت أثرا طيبا في نفسها.. أو لم تكن تفعل ذلك لو كنت مكاني؟"

– لا بأس. اذهب يا صديقي، لكنك لن تغير من الأمور شيئا ثم نهض ووضع يديه على كتفي قائلا في الحاح:

– تعال، اقض معنا يوم غد على الأقل.. إنني في حاجة إليك للفصل بين روزا دارتل وبيني..

ولم يتركني إلا بعد أن حصل مني على وعد بمصاحبته، وفيما أن أتاهب للنوم، لمحت تحت عتبة بابي خطابا، رمى من الخارج.. وحين فضضته وجدته من مستر ميكاوبر، يذكر فيه أنه فقد كل أمل في أن يستعيد مركزه، وأنه عاجز عن تنفيذ التعهد الذي وقعه عنه "ترادل". وهو الأمر الذي كنت قد توقعته تماما!

الفصل التاسع

استقبلني ستيرفورث مرحبا، ولم تكن روزا دارتل أقل منه ترحيبا وإن كانت قد أزعجتني بنظراتها الفاحصة التي لم تكف عن توجيهها تارة إلي وتارة إلى ستيرفورث، كأنما لتقارن بين وجهينا والأدهى من ذلك أنني لم أستطع أن أسير خطوة في البيت بغير أن أسمع حفيف ثوبها وراءنا.. وأخيرا عمدت – لكي أتخلص منها – إلى أخذ ستيرفورث والخروج إلى الحديقة.. وإذ ذاك راحت تطل من نافذة بعد نافذة باحثة عنا.. وحين خرجت معنا في نزهة بعد ساعات، أخذت ذراعي، ووجدت بذلك الوسيلة التي تفصلنا بها مؤقتا ثم قالت لي:

– ألا تعتقد أن هذه الرحلات المتتابعة سوف تعود عليه بالضرر؟

فنظرت إليها، مدهوشا، وسألتها: "ماذا تعنين؟"

– يجب أن تفهمني.. لا أريد القول بأنك أنت المسئول عن غيابه المتكرر عن الجامعة.

وفهمت أنها تتحدث عن ستيرفورث، فأجبتها: "أنت على حق، وما كنت لأعلم بتغيبه على هذا النحو إلا منك. لقد رأيته في الليلة الماضية لأول مرة منذ مدة طويلة".

وأدهشها ذلك إلى حد بعيد، ولما أكدت لها صحة ما ذكرته لها قالت وهي ترمقني بعينيها البراقتين:

– إذن.. قل لي: ماذا يفعل؟.. في أية مهمة يستخدم خادمه الكتوم؟.. أهو الغضب، أم الكبرياء، أم النزوة، أم الحب هو الذي دفعه إلى التصرف هكذا؟

فأجبتها: "يا آنسة دارتل.. كيف تتوقعين أن أعرف؟ أؤكد لك أنني لا أعرف عن ستيرفورث جديدا.. ولست أفهم ماذا تقصدين".

وعندئذ أطلقت آهة مختنقة، ورفعت يدها إلى ندبة شفتها. ثم قالت مسرعة بصوت خفيض في لهجة غضب:– رجائي إليك ألا تبوح بكلمة مما ذكرت لك لأي مخلوق.

وفي تلك الليلة، وقت العشاء، أخذت تلف وتدور محاولة أن تسأل سؤالا، حتى اضطرت والدة ستيرفورث إلى أن تطالبها بالكلام في صراحة.. فأجابت الفتاة:

– إنك على حق. أريد أن أكون صريحة.. مثل جيمس

– لن تجدي غيره مثالا للصراحة.. على أي حال أكملي سؤالك

فقالت الفتاة وهي تتوجه بكلامها إلى ستيرفورث:

– أريد أن أعرف: هل إذا وقع شخصان من خلق واحد في سوء تفاهم، أيكونان عرضة أكثر من غيرهما لتبادل الحقد؟.. أو فلنفرض مثلا –مجرد افتراض– أنك وأمك قد اشتبكتما في شجار..

وهنا تدخلت السيدة ستير فورث ضاحكة:

– يا عزيزتي روزا.. افرضي فرضا غير هذا.. فإني أنا وجيمس نعرف جيدا واجب كل منا نحو الآخر فقالت الآنسة دارتل في لهجة جادة: "هذا صحيح، ذلك لا يمكن أن يقع بينكما".

.. وعلى غير عادة ستير فورث بقى في البيت طيلة النهار بالقرب من الفتاة الوحيدة، يراعى شعورها.. وفي المساء طلبنا منها أن تغني لنا، فغنت بضع مقطوعات جميلة من شعر الغزل الايرلندي بمصاحبة القيثارة.. وعلى حين غرة تناول ستيرفورث ذراعها وهو يقول: "أتعلمين يا روزا.. أننا منذ الآن سنصبح أخلص صديقين في العالم؟".

لكنها ضربت يده التي تمسك ذراعها، في حركة جافة، واندفعت خارجة من الحجرة، كقطة متوحشة.. فقالت السيدة ستير فورث لابنها: "لا تستثرها يا جيمس، فأنت تعلم جيدا أن لها خلقا حادا.. ففيم معارضتها؟".

وحين انسحبت أنا كي ألوذ بغرفتي، رافقني ستير فورث، فسألته كيف يفسر خروج الآنسة دارتل من الحجرة على تلك الصورة النافرة؟..

فأجابني: "الله وحده يعلم.. إنها ذات حساسية شاذة، بل هي مثل سلاح حاد ينبغي أن يمسكه الإنسان ويستعمله في حذر شديد إنها خطرة على الدوام" ثم أردف قائلا: "طابت ليلتك". فقلت له بعد أن رددت تحيته بمثلها: "سأكون قد رحلت حين تستيقظ". فكرر تحيتي دون وعي قائلا: "طابت ليلتك".

لكنه بدلا من أن يغادرني وضع يديه من جديد على كتفي، وقال وهو يبتسم: "أيها الصديق، بودي لو كنت مثلك.. وعلى أية حال إذا حدث أي ظرف يقتضي انفصالنا فلا تسئ بي الظن.. عدني بذلك".

فقلت له: "إنني لا أستطيع غير أن أحسن بك الظن، وأنت تعلم مبلغ إعزازي القلبي لك".

فقال: "إذن.. فليباركك الله، طابت ليلتك".

وحين غادرت المنزل في الصباح، من غير أن أثير أية ضجة، لم أستطع إلا أن ألقي نظرة عابرة على صديقي في غرفته. كان نائما نوما هادئا، ورأسه فوق ذراعه المطوية، وهو الوضع الذي طالما رأيته فيه أثناء دراستنا معا. وساءلت نفسي: "كيف استطاع أن ينام في تلك الليلة ذلك النوم الهادئ؟".. وما زلت أسائل نفسي حين اليوم.

* * *

وصلت إلى "يارموث" في المساء، وفي عزمي أن أقيم بفندق الحانة الصغيرة، كي أجنب بيجوتي العزيزة كل تعقيد أو تعب، وفي طريقي إلى هناك، مررت أمام محل مستر "أومير"، وكان الباب مفتوحا فرأيت الرجل يدخن غليونه.. فدخلت وحييته، فاستقبلني مرحبا، ثم حدثني عن باركيس المسكين، فقال إن ابنتي وصهري ذهبا يتسقطان أنباءه من الصغيرة إميلي، التي أقامت مع عمتها كي تساعدها، وإنهما لن يتأخرا عن العودة، ويمكنك أن تنتظر قليلا كي تقف على الأنباء".

وإذ ذاك سألته عن أنباء إميلي، فقال لي وهو يحك ذقنه:

– أصارحك القول بأنني أكون مستريحا إذا تم زواجها.

ثم أوضح لي أنها برغم جمالها الرائع، تزداد ترددا يوما بعد يوم.. ويبدو أنها ستترك عمها وبيته البحري آسفة حين تنتقل إلى العش الصغير الذي يعده لها ابن عمها. ثم إن حالة باركيس التعس تزيد الأمور تعقيدا إذ تؤجل الزواج.

وفي تلك اللحظة أقبلت ابنته تعلن أن حالة مستر باركيس تزداد سوءا وأنه فقد الوعي.. وأن أسرة بيجوتي جميعها قد اجتمعت حول فراشه وتوجهت بدوري إلى هناك، ولم يدهش الجميع لرؤيتي بالقدر الذي كنت أنتظره.. وكانت إميلي جالسة في الركن إلى جوار المدفأة، وقد أخذت وجهها بين راحتيها، بينما وقف هام بالقرب منها.. وهتف بها مستر بيجوتي:

– اميلي، يا عزيزتي.. ألا تقولين شيئا لمستر دافي؟

فارتبكت ومدت لي يدا كالثلج ثم انسحبت إلى حيث جلس عمها وأسندت رأسها على كتفه.. فقال مستر بيجوتي كأنما هو يعتذر نيابة عنها: "إن الموت يبدو شيئا مخيفا لأوزتي الصغيرة الخجولة هيا يا إميلي الوقت قد تأخر. سوف يرافقك هام إلى البيت. ماذا تقولين؟ تريدين البقاء معي؟ ولكن لماذا أيتها الحمقاء؟" وهنا قال هام: "إن إميلي على حق في ذلك.. أليس كذلك يا مستر دافي؟ وأنا بدوري سأبقى" فأجاب

مستر بيجوتي: "كلا!.. ينبغي ألا تضيع يوما من أيام العمل.. عد ولا تقلق بشأن إميلي.. إنها سوف تجد هنا العناية الكافية، أؤكد لك ذلك يا عزيزي هام"

وذهب هام، وصعدت أنا مع بيجوتي إلى حجرة مستر باركيس. فقالت المسكينة وهي تنحني على زوجها:– باركيس، يا عزيزي.. هو ذا ابني الحبيب مستر دافي.. أتبغي أن تكلمه؟

لكن المحتضر لم يتحرك.. فقال لي مستر بيجوتي بصوت خافت:

– سوف يموت مع الجزر.. فهنا على الساحل يولد الناس مع المد ويموتون مع الجزر.. والبحر سيهبط حوالي الساعة الثالثة والنصف.. سترى..

ونحو ذلك الوقت، فتح المحتضر عينيه وبدا أنه عرفني.. فحاول أن يمد لي ذراعه وابتسم.. وهبط البحر، فذهب الرجل مع الجزر..

* * *

قررت أن أبقى إلى ما بعد تشييع باركيس إلى قبره.. وكلفتني بيجوتي أفتح وصيته ففعلت بعد عودتي من المقبرة، متخذا جميع التحوطات الرسمية التي اقتضتها ممارسة هذا الإجراء الأول في دراستي القانونية.. وعلى أثر ذلك تم الاتفاق على أن تسافر بيجوتي معي في الغد إلى لندن، كي تدبر شئون التركة.. على أن تجتمع الأسرة كلها في المساء في البيت البحري!

وهطلت الأمطار بغزارة وأنا في طريقي إلى هناك، وكان من حسن

حظي أن قادني إلى هدفي في الظلام نور منبعث من إحدى نوافذ السفينة، ووجدت مستر بيجوتي يدخن غليونه بالقرب من المائدة التي أعدت للعشاء.. والنار تتأرجح مرحا في المدفأة، وبجانبها مقعد إميلي في ركنها المعتاد، وقد جلست بيجوتي في مكانها المألوف ومعها سلة أشغالها اليدوية.. وكانت السيدة "جامدج" في حالة نفسية سيئة كالعادة..وقال لي مستر بيجوتي بلهجة مرحة:

– إنك أول من يصل يا مستر دافي.. اخلع معطفك الذي بلله المطر، وخذ قسطا من الراحة. ولست في حاجة إلى أن أقول لك إنك تحل بيننا على الرحب والسعة، وإنني أقولها لك من صميم قلبي.

ثم نظر إلى الساعة التي على هيئة ديك عجوز، وأشعل شمعدانا ووضعه فوق حافة النافذة.. وهو يقول:

– إنه من أجل ابنتنا إميلي، سوف تقول لنفسها حين تلمحه من بعيد: "إنهم ينتظرونني في البيت".. وستفهم أنني هنا.. وحتى بعد أن تتزوج وترحل من عندنا سأضع الشمعدان في مكانه كي أوحي لنفسي بأنني أنتظر محبوبتي الغالية وأسر بالتفكير في احتمال أن ترى هي النور يوما وتفكر في. ها هي ذي قد جاءت.. وكان هام وحده هو القادم، وقد دلى قبعته على وجهه، مما يوحي بسوء الطقس في الخارج.. وسألته بيجوتي: "أين إميلي؟"، فأشار بيده إشارة توهم أنها في الخارج.. وإذ ذاك تناول مستر بيجوتي الشمعدان من فوق النافذة ووضعه على المائدة.. ثم راح يذكي النيران في المدفأة.. بينما ظل "هام" واقفا في مكانه بلا حراك ولا كلام، ثم التفت إلي بعدها قائلا:

– مستر دافيد.. هل لك أن تخرج معي لحظة، لترى ما نريد أنا وإميلي أن نعرضه عليك..؟

وجعلني أمر أمامه، وأغلق الباب خلفنا بعناية، فنظرت إليه مرتاعا من شحوب وجهه، ولم أملك أن سألته:

– هام.. ماذا حدث؟

فأجهش الفتى التعس بالبكاء.. وأمام شجنه الغالب ظللت برهة كالمشلول.. ثم عدت أسأله: "بحق السماء قل لي ماذا حدث؟".

فتأوه وقال: "يا مستر دافيد.. إن الفتاة التي أحببتها، وكانت كل أمل قلبي، وكنت أنا مستعدا لأن أموت من أجلها طائعا.. هذه الفتاة قد رحلت".

وتملكتني الدهشة، وأخذت أتساءل: "رحلت؟.. كيف كان ذلك؟ "

فقال الفتى المسكين: "لقد فرت إميلي.. وإني لأتوسل إلى الله أن يقتلها – برغم حبي إياها – على أن يدعها تسقط في الخطيئة والتعاسة".

وتأثرت بما بدا في وجهه من علائم الحيرة اليائسة، ولمس حزنه شغاف قلبي.. وما عتم أن استطرد فقال:

– أنت تفهم مثل هذه الأمور فأخبرني كيف أعلن النبأ في البيت، أرجو منك يا مستر دافيد أن تساعدني.

ورأيت الباب يهتز، فأسرعت بوضع يدي على القفل كي أكسب الوقت.. وبعد حين ظهر مستر بيجوتي، ولو أنني عشت مائة سنة، فلن

أنسى التعبير الذي تخطف وجهه حين رآنا نحن الاثنين.. وحدنا، وأذكر أني سمعت صرخة مروعة، رأيت الجمع كله بعدها ملتفا حولنا، ومد هام يده إلي بورقة.. بينما وقف مستر بيجوتي في الوسط أشعث الشعر محتقن الشفتين، وقد سال على سترته خيط من الدم أعتقد أنه هطل من فمه.. ونظر إلي بعينين ثابتتين، ثم قال بصوت راعش:

– اقرأ على مهل، أرجو منك ذلك، أريد أن أقف على الحقيقة كاملة ووسط سكون شبيه بسكون الموت بدأت أقرأ:

"عندما تقرأ –أنت الذي أحببتني أكثر مما أستحق– هذا الخطاب سوف أكون قد ابتعدت.."

فقاطعني مستر بيجوتي مكررا في بطء: "سوف أكون قد ابتعدت.. إميلي.. ابتعدت" واستطردت في القراءة:

"عندما أترك البيت – بيتي العزيز – عند الفجر" وكان الخطاب مؤرخا الليلة السابقة "فإنني سأتركه إلى غير رجعة.. اللهم إلا إذا عدت معه بصفة زوجته.. آه لو تعلم كيف تحطم قلبي.. آه لو تعلم – أنت الذي سببت له من الألم ما هو خليق بأن يجعله لا يصفح عني أبدا – كم أتألم؟.. ولكن فلتعز نفسك بأني فتاة سيئة الخلق.. وقل لعمي إنه ما يزال أغلى الناس عندي، وأعز مما كان.. ولا يستعد إلى ذاكرتك السنوات الطوال التي قضيناها معا.. ولا تفكر في أننا كان ينبغي أن نتزوج.. وإنما وطن نفسك على أني مت منذ طفولتي ولا تنس أن تعزي عمي.. أعد علي مسامعه مبلغ إعزازي له.. وأنت تزوج فتاة تليق بك..

فتاة مخلصة لك. وليبارككم الله جميعا، لسوف أطلب إليه ذلك وأنا جاثية على ركبتي.. وحتى إذا لم يعدني إليكم بصفتي زوجته، فلن أغفل الصلاة من أجلكم أيضا.. دموعي الأخيرة وشكري الأخير لعمي".

وانتهى الخطاب عند هذا الحد فتوقفت عن القراءة، بينما ظل مستر بيجوتي في مكانه ينظر إلي بعينين ثابتتين.. ثم خاطرت بأن مددت إليه يدي وتمتمت ببضع كلمات تشجيع ومؤاساة.. فأجابني من غير أن يتحرك: "شكرا يا سيدي، شكرا".. ثم التفت هام إليه، فكلمه بدوره، بطريقة أخرى. مد إليه يده دون أن ينبس بحرف، وعلى حين غرة.. في بطء، كما لو كان يستيقظ من نوم، تساءل العم في صوت خافت:

– من يكون الرجل..؟ أريد معرفة اسمه

ونظر هام إليَ، وعندئذ عبر روحي خاطر مفاجئ أحسست منه بهزة شديدة في قلبي، بينما استطرد بيجوتي:

– فيمن ترتابون؟.. من؟

وعندئذ قال هام موجها كلامه إلي، بلهجة توسل:

– مستر دافيد، هل لك أن تخرج لحظة حتى أستطيع أن أقول له ما ينبغي أن أقوله؟ وما يجب ألا تسمعه؟

وتلقيت صدمة جديدة في قلبي. فتهالكت على مقعد، وحاولت أن أتكلم.. لكن لساني جف، وعيني زاغتا.. بينما سمعت صوتا يكرر: "أريد معرفة اسمه"، فتمتم هام: "منذ زمن قريب حل هنا خادم، وسيد.. وكان الاثنان

متواطئين".. وثبت مستر بيجوتي بصره في الفتى المتكلم، واستطرد هذا فقال:

– وقد رئى الخادم في الليلة الماضية، والفتاة المسكينة معه.. لقد اختبأ هنا منذ ثمانية أيام، بعد أن حسبنا أنه سافر.. اذهب من هنا يا مستر دافيد.. لا تمكث هنا..

وفي تلك اللحظة شعرت بذراع بيجوتي حول عنقي.. ولكن حتى لو انهار المنزل على من فيه في تلك اللحظة، لما استطعت حراكا، واستطرد هام: "لقد رأيت عربة غريبة خارج البلدة هذا الصباح، على طريق نوروتش، قبل مطلع الشمس.. وقد ذرع الخادم الشوارع عدة مرات، وفي آخر مرة كانت إميلي معه.. بينما كان سيده في داخل العربة".

وهنا صاح مستر بيجوتي وهو يتهالك فوق مقعده:

– بحق السماء.. إذا كنت لم أخطئ الفهم فإن اسمه "ستير فورث".

فقال هام بصوت محطم: "مستر دافيد، إنها ليست غلطتك، أعلم ذلك، لكنه في الواقع ستير فورث بعينه.. وهو نذل وضيع".

وعندئذ نهض مستر بيجوتي من غير أن ينطق بحرف، أو يذرف دمعة، فتناول معطفه القديم المعلق فوق المشجب، وقال بصبر نافد بعد أن حاول عبثا أن يرتديه:

– أعينوني على لبسه.. وناولوني قبعتي

فسأله هام: "أين تبغي الذهاب؟". وكان جوابه: "سأبحث عن ابنة أخي.. ولكن بعد أن أغرق الزورق الذي كان ينبغي أن أغرقه من زمن لو

عرفت نواياه..نعم سأبحث عن ابنة أخي وعاد "هام" يسأله: "أين تبحث عنها؟". فأجابه وهو يرتعد: "في كل مكان.. ولا يحاولن أحد أن يمنعني..".

وهنا تناولت الأم "جامدج" ذراعه، وباهتمام زائد لم تألف من قبل إظهاره، راحت تناشده أن يهدأ ويفكر في الله الذي سوف يعزيه ويرد له مضاعفا كل الخير الذي فعله من أجله، ولم يقاوم المسكين هذه التوسلات المؤثرة التي بوغت بها على غير انتظار، فأجهش بالبكاء.. وأجهشت أنا معه تأثرا وأسفا على الشجن الفادح الذي كنت سببه غير المباشر!

وفي الصباح التالي وجدت الرجلين عند الخليج.. وأوضح لي مستر بيجوتي أن هام سوف يستأنف عمله ويعيش مع عمته.. أما السيدة جامدج فستظل تعيش في السفينة وتضع الشمعدان في النافذة كل ليلة، كأنما لتقول للطفلة المسكينة: "عودي.. عودي".. ثم أضاف العم التعس: "من يدري؟. ربما علمت إميلي بأن السيدة جامدج موجودة وحدها في المنزل، وحينئذ نجد الشجاعة لكي تعود، وتنام في سريرها القديم، وتضع رأسها المتعب المكدود حيث ألفت أن تضعه في لياليها الماضية السعيدة".

ورحل العم معي في المساء إلى لندن، وأسرَ إليَ في الطريق بعزمه على التحدث في الأمر إلى والدة ستير فورث نفسها.. فصحبته إلى منزلها وأعطيت الخادم الذي استقبلنا بطاقة صغيرة كتبت فيها بالقلم الرصاص بضعة أسطر رجوت السيدة فيها أن تستقبل مرافقي الكهل ولو بدافع الشفقة.. وأدخلونا إلى صالون كانت السيدة ستيرفورث جالسة

فيه، شديدة الشحوب.. فأدركت أنها علمت، من ابنها نفسه، حقيقة ما فعله. وكانت الآنسة دارتل واقفة خلف مقعدها.. وساد صمت ثقيل.. ثم قالت السيدة ستير فورث أخيرا:

– ما هو التعويض الذي تستطيعون تقديمه إلى مقابل الهوة التي تحفرونها بين ابني وبيني؟.. وماذا تكون عاطفتكم بالقياس إلى حبي الأمومي؟

وهنا أرادت الآنسة دارتل أن تتدخل في الحديث فاستوقفتها السيدة ستيرفورث قائلة:

– دعيني أكمل كلامي يا روزا.. يجب أن يعلم هذا الرجل قيمة ابني في نظري.. إنني منذ ولد لم أفكر إلا من أجله، كان دائما هدف حياتي الوحيد.. وقد وهبته كل شئ: حناني، وثقتي، وحبي.. وقد أخل بكل الواجبات التي يفرضها عليه حبه إياي واحترامه لي، وعرفانه بجميلي.. أخل بكل ذلك من أجل فتاة تعسة.. أليس هذا عارا لي أنا أيضا؟

ثم التفتت نحوي، وطلبت مني أن أضع للمقابلة حدا، وإلا اضطرت هي للانسحاب.. فقال لها مستر بيجوتي:

– لا تخشي شيئا يا سيدتي، فلن ألح في طلبي.. وإنما سأرحل من هنا –كما جئت– دون أمل. لقد فعلت ما رأيته واجبي، لكنني الآن أتعجل مغادرة المنزل الذي هو سبب شقائي وشقاء أهلي..

وخرجنا..وسبقتنا روزا دارتل في الممر، وبعد أن تركت مستر بيجوتي يخرج استدارت نحوي بعينين تشتعلان غضبا وقالت لي في عنف:

– أي صديق مخلص قد اتخذت؟.. ماذا ألجأك إلى إحضار هذا الرجل إلى هنا؟

فقلت لها في هدوء: "يا آنسة دارتل، ألا تعلمين مبلغ العدوان الذي وقع عليه؟"

فقالت: "أعلم أن جيمس ستيرفورث ذو قلب زائف ملوث. لكن هذا الرجل وابنة أخيه وجميع أفراد هذه العصابة هم أنذال، أتمنى أن أراهم يجلدون بالسوط حتى تدمى أجسادهم وتدمغ بالحديد المحمي.. إنني أمقتهم من صميم قلبي وإذا استطعت بكلمة مني أن أجعلهم تعساء إلى آخر أيامهم لما ترددت في النطق بها".

رأيت في حياتي ثوراث غضب كثيرة، لكني لم أر لثورة تلك الفتاة وهي تتحدث إلى مثيلا، وسارعت إلى اللحاق بمستر بيجوتي.. الذي قال لي:

سأسافر الليلة. سأبحث عنها ولو ذهبت إلى أقاصي الأرض، وأكرر لك ما سبق أن رددته على مسامع شقيقتي: إذا أصابني سوء فليبلغ إليها أن آخر كلماتي كانت أني أصفح عن طفلتي المحبوبة، ولن يغير شئ من حناني عليها..

الفصل العاشر

تتابعت الأيام، ولم تتشابه لحسن الحظ ..

وحين عدت إلى كلية الحقوق دعاني مستر سبنلو إلى حفلة صغيرة تقام احتفاء بعيد ميلاد ابنته.. فأخذت أتأهب لتلك المناسبة منذ الساعة السادسة صباحا. ذهبت أبتاع باقة ورد من سوق "كوفنت جاردن"، وفي الساعة العاشرة كنت أمتطي جوادي عاري الرأس حاملا الباقة المذكورة، وكم كان سروري حين رأيت دورا جالسة على الحشائش أمام حوض من أزهار الزنبق، متألقة مثل وردة في الربيع، وقد تزينت زينة كاملة رائعة، وكانت معها صديقة حميمة لها، ظريفة وجذابة مثلها.. كما كان الكلب جيب راقدا عند قدميها، وحين قدمت لها باقة الزهر أخذ ينبح بشدة، كأنما تملكته الغيرة.. أما دورا.. فأطلقت صيحة فرح، وشكرتني بابتسامة خلابة، خلت معها أني قد انتقمت لنفسي من كل كلاب الأرض. ثم قالت لي: سيسرك أن تعلم أن الآنسة مردستون الرهيبة لن تكون معنا اليوم. لقد ذهبت لحضور زفاف شقيقها وسوف تتغيب ثلاثة أسابيع، أليس هذا أمرا رائعا؟

فأجبت قائلا: "إن أي شئ ترينه رائعا لا يمكن أن يبدو لي غير ذلك" وابتسمت صديقتها الآنسة ميلز وفي هذه اللحظة أعلن أن العربة قد أعدت، فصعدت إليها الفتيات. وكانت دورا ما تزال ممسكة بباقة الزهر، بينما تبعتها أنا على ظهر جوادي.. ومنذ تلك اللحظة حتى نهاية

المسافة كنت كأني اسبح في الأفق اللازوردي الساحر.

وبعد الظهر وفي حماية الآنسة ميلز.. تبادلت و دورا البوح بما يكنه كلانا للآخر من حب، وفي اليوم التالي كتبت إلى آجنس خطابا طويلا، ذكرت لها فيه أنني و دورا صرنا خطيبين، وأفرغت في الخطاب كل ما بقلبي، كما لو كنت أكتب إلى شقيقتي. ولم أستطع إلا أن أذكر لها نبأ فرار إميلي دون أن أشير إلى اسم ستيرفورت، وجاءني ردها بعودة البريد، وكان ردا أظهر طيبة قلبها، بحيث خيل إلي وأنا أقرؤه كأني أسمع صوتها.! وواصلت الحياة سيرها، وفي ذات يوم زارني "ترادل" فأنبأته بخطبتي لدورا، وأنبأني هو أن خطبته ما زالت قائمة وإن اقتضت الظروف تأخير الزواج.. ولحظت أنه لم يفقد شجاعته في مواجهة المتاعب، حتى بعد أن اضطر إلى بيع الأثاث المتواضع الذي كان لديه، كي يفي بالدين الذي ضمنه على آل "ميكاوبر".. وبدت في لهجته الثقة الكاملة بخطيبته المحبوبة، والإعجاب بطيبتها، ولاسيما بعد أن حلت مكان أمها المشلولة في تعهد الأطفال العشرة الصغار، والتدريس لكبارهم، مع العناية بأختها المريضة، والتخفيف بمرحها من وطأة نزوات الابنة الكبرى.. التي كان مبعثها شعورها بجمالها!

ثم قال لي ترادل: "لقد جئت أطلب منك خدمة.. فقد تجمع لي بعض المال الذي أبغي أن أسترد به بعض أثاثي الذي بعته في محنتي. وقد شاهدته بالأمس في واجهة الحانوت الذي اشتراه مني، لكني أخشى إن أنا ذهبت إلى صاحب الحانوت بنفسي أن يغالي في الثمن الذي يطلبه!"

فوعدته بانجاز هذه المهمة.. وفي المساء نفسه جاءت بيجوتي لتزورني، فأرسلتها لتشتري الأثاث المطلوب، كي يعطيه لها البائع بثمن معقول.. وكم سر الفتى بذلك.

وحين عدت إلى مسكني، أدهشني أن أسمع لغط أصوات مختلفة، وما كدت أدخل إلى الصالون حتى وجدت عمتي جالسة فوق كومة من حقائب المتاع ومعها عصفوراها الغاليان في قفصيهما، وقطتها على ركبتها.. تماما كما كان يفعل روبنسن كروزو. وكانت تجرع قدحا من الشاي بينما وقف مستر ديك، خلفها متكئا على طيارة كبيرة من الورق المقوى، وقد كاد جسمه يختفي وراء تل عال آخر من المتاع.

وهتفت من فوري: "عمتي العزيزة.. أية مفاجأة سارة؟!"، وتعانقنا بحرارة، ثم تبادلت مع مستر ديك مصافحة ودية.. ولحظت أن عمتي تجلس فوق حقيبة كبيرة من حقائب المتاع، فصحت بها:

– عمتي.. دعيني أقرب المقعد منك.. إنك غير مستريحة هكذا..

فأجابت: "شكرا يا تروت. إني أفضل أن أبقى جالسة على ممتلكاتي"

ثم نظرت إلي في شئ من الأسى وسألتني: "هل اكتسبت حزما وصلابة؟"

فأجبت: "أرجو أن أكون قد فعلت!" فقالت: "إذن.. هل تعلم لماذا أفضل الآن أن أجلس على ما يخصني؟"

ولما هززت رأسي دلالة على أني لا أعلم، أردفت هي قائلة:–

إذن.. أن أروي لك الأمر كله.. إني إنما أفعل ذلك، لأن هذا المتاع هو كل ما تبقى لي من ممتلكاتي.. لقد أصابني الخراب يا بني ولم يبق لي مما كنت أملكه عدا هذا المتاع سوى الكوخ الذي تركته لجانيت كي تؤجره.. ومستر ديك على بينة من الأمر، وأود لو أجد له سريرا في مكان ما.. أما أنا فتستطيع أن تدعني أقيم معك هنا في أي ركن، تجنبا لزيادة النفقات. لست في حاجة إلى أكثر من المبيت الليلة فقط. وغدا نتحدث في الأمر كله بالتفصيل".

ثم اتكأت على كتفي، وأجهشت بالبكاء، معربة عن أساها الشديد من أجلي.. لكنها لم تلبث أن استردت هدوءها وقالت وهي تغتصب ابتسامة:

– ينبغي أن يكون المرء شجاعا ولا يدع روحه تنهار تحت وطأة الأحداث، أليس كذلك يا تروت؟

* * *

أخذت مستر "ديك" إلى تاجر شمع كان مستر بيجوتي قد نام عنده ذات ليلة.. أما عمتي فقد أصرت على أن أدع لها فراشي، بينما اضطجعت أنا على مقعد في الصالون، وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي توجهت لمقابلة مستر سبنلو، كي أحدثه بشأن فكرة خطرت لي أثناء الليل، وبعد أن أوجزت له موقف عمتي طلبت منه الإذن بفسخ

العقد الذي يربطني بالكلية لعدة سنوات، وعدت إلى مسكني حائرا.. وفيما كنت أعبر الشارع، لمحت عربة تمر بالقرب مني وفيها ملاكي الطيب آجنس.. ولم تكد الفتاة تراني حتى أوقفت العربة فهرعت نحوها وصحت فرحا:

– آجنس.. لكم أنا سعيد برؤيتك. إن عندي أشياء كثيرة أقولها لك، ولا يخفف وطأتها على قلبي غير شعوري بقربك مني.. إلى أين تذهبين؟

فقالت: "لقد جئت لزيارة عمتك، وبما أن الطقس جميل فأصرف العربة وأمشي معك".

وروت لي في أثناء الطريق أنها عرفت تفصيل قصة عمتي منها هي نفسها.. كما روت لي أنها جاءت إلى لندن مع أبيها، ومع يوريا هيب أيضا..

فسألتها: "أهما شريكان الآن؟"

فأجابت: "نعم.. وقد جاءا لبعض الأعمال، فانتهزت الفرصة وجئت معهما، لأني لا أحب أن أترك أبي وحده مع ذلك الفتى"

فسألتها: "ألا يزال له نفوذ كبير لدى أبيك؟"

فأجابت: "نعم.. ولو رأيت التغييرات التي طرأت على منزلها لما عرفته.. إن يوريا وأمه يعيشان معنا الآن.. آه، أين الزمن الذي كنت فيه تعيش معنا.. كم كنا وقتئذ سعداء.. تصور أنني أضطر في بعض الأحيان

إلى مؤانسة السيدة هيب!. وقد بلغ من ملازمة ابنها لأبي أنني لم أعد أستطيع الحيلولة دون نفوذه السيئ لديه.. لكنني أرجو أن تتغلب كفة حناني البنوي آخر الأمر على كفة الخيانة والخبث.".

ووصلنا أخيرا إلى مسكني.. وكانت عمتي قد تشاجرت أثناء غيابي مع صاحبة البيت، فوجدناها ما تزال ثائرة الأعصاب.. لكنها لم تكد ترى آجنس حتى عاودها مرحها ومزاحها المألوف.. وجلسنا ثلاثتنا نتسامر، سعداء باجتماعنا معا. ورويت لعمتي الخطوة التي حاولت اتخاذها ولم تنجح.. فقالت لي:

– إنك فتى كريم، وأنا فخورة بك لكن النتيجة كانت متوقعة وعلينا الآن أن نواجه الأمور وجها لوجه..

ورأيت وجه آجنس يشحب، وحين شرحت عمتي مركزها وسألتنا رأينا رأيت وجهها يسترد لونه الطبيعي، وقالت لنا على الفور: "خير لكما أن تظلا في هذا المسكن.. وهناك وظيفة سكرتير لدى الدكتور سترونج الذي يزمع أن يعتزل منصبه ويقيم بلندن.. وأنا كفيلة بالحصول عليها لديفيد، ليمضي فيها ساعات فراغه".

وكتبت آجنس من فورها خطابا إلى الدكتور سترونج. وطلبت إلى أن أمضي به إلى مكتب البريد، وفي أثناء غيبتي، تولت تنظيم مسكني وفقا للوضع الجديد.. وكان ترتيبها رائعا أعجبنا جميعا فأخذنا نثني عليها.. وفجأة أقبل مستر ويكفيلد، وكم روعني التغير الذي طرأ عليه. لقد اكتسبت طلعته طابعا صارما.. وصارت عيناه في لون الدم، ويداه

ترتعشان رعشة ظاهرة.. وبدت عليه في حضور يوريا روح الخضوع التام.. أما هذا الأخير فلم يعد يخفي شعوره المبالغ فيه بأهميته القصوى.. وقد توقع أن تعمد عمتي – بعد أن تفرغ من التحدث إلى مستر ويكفيلد – إلى الاستفسار منه عن أبنائه هو.. وحين فعلت شكرها، في تواضع جم، ثم سألني بدوره عن أخباري.. وعن رأيي في أثر السنين في كل منهم، ولم ينتظر ردي على سؤاله بل سارع إلى الإجابة بنفسه قائلا: "إن الزمن لم يؤثر أدنى تأثير في الأعمال، فيما عدا أنه كفل النصر للتواضع والجمال" وحين نطق بالكلمة الأخيرة نظر إلى آجنس نظرة ذات معنى.. وكان وهو يتكلم يقوم بحركات عصبية تثير الناظرين، حتى فقدت عمتي صبرها فصاحت به:

– ماذا بك يا سيدي؟. هل أنت على اتصال ببطارية كهربائية؟

فقال لها: "أرجو المعذرة يا سيدتي. لكني أعتقد أنك أنت العصبية"

فقالت له: أنت مخطئ في هذا يا سيدي!. الواقع أنك تتحرك كما لو كنت من فصيلة سمك الثعبان! لماذا لا تحتفظ بأعضاء جسمك هادئة؟ إن من يراك تهتز هكذا يحسب أنك خليط من الثعبان والبريمة"..

ارتبك الفتى قليلا بتأثير الإهانة الساخرة، ولكنه تجاهلها وقال لي بلهجة معسوله: "كم أكون سعيدا جدا لو أتيح لمكتب ويكفيلد – هيب أن يؤدي لكما أية خدمة". وقد أمن مستر ويكفيلد على هذا القول وهو يكرر عبارة شريكه يوريا.. ومن حسن الحظ أن هذا الأخير أحس في

النهاية أنه محاط بجو عدائي فآثر الانسحاب.. وقضينا بقية السهرة وكأننا تخلصنا من حمل ثقيل، مستمتعين بأجمل روح ودية صافية!

وقد لحظت مدى الرعاية الحنون التي بذلتها آجنس لأبيها أثناء العشاء، وعقب فراغنا من الأكل جذبتني الفتاة إلى جوار إحدى النوافذ كي تسألني عن دورا وتحدثني عما تعرفه عنها، آه يا آجنس يا شقيقة طفولتي. ليتني علمت وقتئذ ما تعلمته بعد فوات الأوان ،لكنني كنت في الواقع أعمى – كما قالت عمتي فيما بعد.

* * *

رحب الدكتور سترونج بمعاونتي له، وطلب أن أخصه بساعتين من وقتي كل صباح، وساعتين أو ثلاثا في المساء، عدا يومي السبت والأحد، وقد عكفت على العمل والدراسة دون كلل، من الساعة الخامسة صباحا، حتى الساعة العاشرة مساء، سعيدا بتعبي، إذ بدا لي أن ذلك يؤهلني أكثر فأكثر للحظوة بمحبوبتي دورا .. ثم خطر لي أن أفعل أكثر من ذلك.. فسافرت ذات صباح برفقة مستر ديك إلى حيث يقطن صديقي ترادل كي أسأله أن يبحث لي إذا استطاع عن أعمال إضافية في الصحافة، التي اشتغل بها.. فنصح بأن أقوم ببضع دراسات تمهيدية أولا، وقد بدأتها فعلا منذ اليوم التالي. كما كلف مستر ديك بأن ينسخ بعض الأوراق، فأدى المسكين المهمة وهو يكاد يطير فرحا، وفي يوم السبت التالي كان قد ربح من هذا العمل عشرة شلنات وتسعة بنسات حملها من فوره إلى عمتي ودموع الفرح في عينيه.

وعلمت من ترادل أن مستر ميكاوبر قد وجد هو الآخر عملا، وأنه قد رد له المبلغ الذي ضمنه فيه.. وهكذا بدا أن الجو بدأ يصفو ويشرق، لكنني تلقيت فجأة دشا باردا، إذ كان قد انقضى أسبوع على حياتي الجديدة حين دعتني الآنسة ميلز إلى الذهاب لتناول قدح من الشاي معها ومع دورا يوم السبت التالي. وفي انتظار ذلك الموعد واصلت أعمالي العديدة المرهقة، وكنت ألقى مستر ديك في أوقات الطعام فأجده منهمكا في أعمال النسخ بنشاط وغبطة.. بينما صارت عمتي تدللني كأم، ولا تدخر وسعا في سبيل إسعادي، فأحالت مسكننا إلى جنة صغيرة أنيقه، بمعاونة بيجوتي التي آمنت عمتي أخيرا بمواهبها وإخلاصها، بعد أن صارت تعرف باسم زوجها الراحل باركيس.. وهكذا توفرت لدي الأسباب التي تجعلني أمضي إلى مأدبة الشاي يوم السبت التالي وأنا في حال من الانشراح.

ترصدتني دورا من النافذة، حتى إذا ما لمحتني هرعت إلي..ولم أكد أجلس في الصالون بجانبها حتى سألتها من غير مقدمات عما إذا كانت تستطيع أن تحب شحاذا؟، فأجابتني وهي تقطب تقطيبتها العذبة:

– كيف تجرؤ على أن توجه إلي سؤالا هكذا؟

– لأنني يا حبيبتي لست سوى شحاذ

– كيف تستطيع أن تقول لي كلاما مثل هذا؟.. سأجعل "جيب" يعضك إذا استمررت في هذا الهراء. وكان ينبغي أن أفهم من ذلك أنها ليست غير طفلة، لكنني شعرت بالحاجة إلى إيضاح قولي فكررت جادا:

- دورا.. يا حبيبتي الصغيرة الغالية، لقد أصابني الخراب.

فعادت تكرر وهي تدلي خصلات شعرها دلالا:

- سأجعل جيب يعضك إذا واصلت سخافتك.

لكنها حين رأت على وجهي طابع الجد، وضعت يدها الصغيرة المرتعشة على كتفي، ونظرت إلي نظرة انزعاج.. ثم أجهشت بالبكاء، وشعرت بالندم، فجعلت أسري عنها بكل ما في وسعي، وكدت أنجح في مهمتي، لولا أن خطرت لي فكرة حمقاء فقلت لها: "إن الفقر لا يهم، وإن لقمة خبز يكسبها الإنسان بوسيلة شريفة خير.."، لكنها لم تدعني أكمل كلامي، بل قاطعتني قائلة:

- لا تحدثني عن الفقر ولا عن لقمة الخبز، فإن "جيب" وحده تلزمه شريحة من اللحم كل يوم وإلا مات جوعا.

فطمأنتها من هذه الناحية، وحاولت أن أرسم لها صورة زاهية لمستقبلنا وبيتنا البسيط المري. ثم أضفت إلى ذلك أن الإنسان، بالمثابرة وقوة الخلق، يستطيع أن يحتمل أسوأ الأمور، وعندئذ صاحت قائلة:

- لكني لا أملك قوة الخلق بتاتا، أليس كذلك يا جيب؟ هيا. قبل جيب وكن ظريفا.

ولم يكن أمامي غير أن أطيعها، ولكني لم أوفق أو أنجح بدوري حين اقترحت عليها أن تتعلم كيف تدير بيتا، وتحاول عمل بعض

الحسابات، فأجابتني بتنهدة خارقة ودمع غزير، وحدثتها عن تخصيص دفتر للمطبخ، كما حدثتها عن الصراع من أجل الحياة، والعقبات التي تتعين عليها مواجهتها، لكن هذا كان فوق احتمالها، فقد وثبت إلى عنق الآنسة ميلز التي دخلت في تلك اللحظة وصاحت بها قائلة:

– إنه عامل فقير. إنه عامل فقير..

واستطاعت الآنسة ميلز أن تهدئها، ثم انتحت بي ناحية وقالت لي:

– إن دورا طفلة مدللة بطبيعتها، مخلوقة صغيرة متقلبة كالهواء.. فلا تحاول إدخال المزيد من الجد على حياتها، فإن ذلك بمثابة طلب المستحيل منها.

وفي الساعة الخامسة، انسحبت من الدار، برغم ممانعةجنيتي الصغيرة وقلت لها:

– إن عندي عملا لابد من إنجازه..

– ولكن ينبغي ألا تعمل.. ما جدوى العمل؟ – وكيف نعيش بغير العمل؟

وإذ ذاك أجابت بسذاجة تامة، جعلتني لا أستطيع ردعها على جوابها ولو أعطيت ذهب الأرض كله:

– لا أهمية لذلك، فليحدث ما عساه أن يحدث..

لكنني برغم ذلك كنت أحبها، وتملكني القلق والانزعاج لمجرد

التفكير في المصاعب التي قد تعترض زواجنا، اللهم إلا إذا أجلت هذا المشروع حتى يدب المشيب في شعري.

وذات يوم، ذهبت إلى الكلية فوجدت في غرفة الانتظار مستر سبنلو.. ولم يكد الرجل يراني حتى طلب مني في لهجة باردة متكلفة أن أرافقه إلى مقهى خلف كاتدرائية القديس بول، وأخذني الرجل إلى حجرة صغيرة منزوية وجدت فيها – لدهشتي – الآنسة مردستون. وكان على ملامحها طابع القسوة الصارمة الذي عرفتها به في أيام شقوتي، ومدت لي المرأة أطراف أناملها الباردة، وبعد أن أشار لي مستر سبنلو كي أجلس طلب إلى الآنسة مردستون أن تطلعني على ما في حقيبة يدها، وأخرجت من حقيبتها واحدا من خطاباتي التي كنت قد كتبتها إلى دورا، وسألني مستر سبنلو: "هذا خطك.. أليس كذلك يا مستر كوبرفيلد؟"

وبدأ العرق يتصبب على جبهتي، وأجبت بصوت كدت أنكره: "نعم يا سيدي"

فقال وهو يمد يده إلي بمجموعة من الخطابات مربوطة بشريط أزرق:

– إذن فإن هذه الخطابات جميعا –إذا لم أكن مخطئا– هي بدورها صادرة منك..

وصعد الدم إلى وجهي، ولم أجب.. وحين هممت برد مجموعة الخطابات إليه قال لي في فتور:

– كلا، شكرا.. لست أريد أن أحرمك منها.. تفضلي بالكلام يا آنسة مردستون.

وعندئذ بدأ النائب العام – أقصد الآنسة مردستون – استجوابي بشدة وصرامة تفوق ما يعمد إليه رجال النيابة في تحقيقاتهم، وظهر من التحقيق أن هذه المخلوقة اللطيفة بدأت تتجسس عليَ منذ اليوم الذي وضعت فيه قدمي في البيت لأول مرة.. وقد خاننا جيب اللعين خيانة عظمى حين أخذ يلهو بخطاب من خطاباتنا على مرأى من الرقيبة، وسوف أمر مر الكرام بقائمة الآراء الخاصة والملاحظات الجارحة التي طعمت بها الآنسة مردستون خطبتها البليغة في تقريعي ولومي.. كي أصل إلى ما تلاها من أمور تفوقها في الأهمية.. فقد التفت مستر سبنلو إليَ على الأثر، وقال لي:

– الآن، ما قولك يا سيدي؟

وأحسست أنني أوشك أن أفقد كل إعتباري، ولم أستطه السيطرة على أعصابي ورفع صوتي إلا بمجهود كبير، فأجبته:

– لا شئ يا سيدي، سوى أنني وحدي الملوم، فإن دورا..

فقاطعني الأب في خيلاء: "بل قل الآنسة سبنلو من فضلك إنك قد أسأت استغلال ثقتي يا سيدي"

– عذري الوحيد أنني أحبها.

– كيف تجرؤ على أن تقول هذا؟.. هل فكرت في سنك وفي سن

ابنتي؟.. هل فكرت في أنني وحدي الذي ينبغي أن تكاشفه ابنتي بأسرارها واعترافاتها؟.. هل جالت بذهنك المشروعات التي في وسعي إعدادها لمستقبلها؟

فأجبته: "الواقع أنني لم أفكر في كل ذلك إلا قليلا يا سيدي.. لكننا كنا مخطوبين فعلا حين تبينت ما طرأ على مركزي"

– لا تتحدث عن خطبة.

– لو علمت يا سيدي أية جهود بذلتها كي أجعل نفسي أهلا لها.. والأعمال التي اضطلعت بها ليل نهار كي أستحقها.. ذلك أنني آمل أن أصير جديرا بها يوما ما.. فهل لك أن تمنحني الفرصة الكافية.. إننا كلانا ما نزال في شرخ الشباب.

– نعم أنتما كذلك حقا!.. ولهذا أرجو منك أن تسترد خطاباتك هذه، وأن تسدل الستار على هذه الحماقة إلى الأبد!

* * *

هرعت يائسا إلى الآنسة ميلز لكنها لم تقترح حلا عمليا يدخل الأمل على قلبي.. ومن ثم لم أر لي ملاذا – وقد خذلني والد دورا وصديقتها – غير عمتي. فمضيت إليها وبحت لها بكل شئ، لكنني لم أصل إلى نتيجة تدخل الراحة على قلبي، رغم كل ما قالته لي، محاولة تعزيتي، ولم أنم في تلك الليلة.. وحين ذهبت إلى الكلية في اليوم التالي كنت منهارا من شدة الإعياء.. ومع ذلك كان أول نبأ نمى إلى مسامعي

هناك أن مستر سبنلو أصيب وهو خارج من حفلة عشاء في الليلة السابعة باحتقان في المخ.. وأنهم وجدوه ملقى على الطريق فاقد الحياة..

وكان طبيعيا أن يضاعف هذا الحادث من بلبلة أفكاري، فتوجهت في الليلة ذاتها إلى "نوروود" حيث أوصلت إلى الآنسة ميلز خطابا رجوتها فيه أن تبلغ دورا أخلص تعازي، وتؤكد لها أن أباها لم يوجه لها كلمة لوم واحدة خلال الحملة التي شنها علي أمس.. وكان قصدي من إبلاغها ذلك إدخال شئ من الراحة على قلبها. ولم ألق الآنسة ميلز إلا بعد ستة أسابيع من ذلك التاريخ.. فقالت لي: "إن دورا قد تأثرت أشد التأثر من موت أبيها، وأنها حين قرأت خطابي صاحت ملتاعة: أبي.. أبي الحبيب.. ثم رحلت بعد انتهاء إجراءات الجنازة والدفن إلى بونتي حيث تعيش مع عمتين لها عانستين تقيمان هناك".

وقد أصابني نبأ رحيل دورا بحالة من الحزن والكآبة أقلقت بال عمتي عليَ، فاستشارت في أمري طبيبا، نصح بأن أحصل على قسط من الراحة لبضعة أيام، فتوجهت إلى دوفر لمقابلة المستأجرين لمنزل عمتي، وحين عدت استطعت أن أطمئنها بأن سكان المنزل يحرصون على سلامته كما لو كانوا مالكيه، وأنهم يطردون كل حمار يجرؤ على أن يطأ بحوافره حوض الحشيش المقدس.

ثم قصدت بعد ذلك إلى "كانتربري" حيث استمتعت هناك بمثل الهدوء والصفاء والعذوبة التي كنت أجدها في آجنس، كأنما هذا الجو

كان قطعة من نفسها، وحين وصلت إلى بيت آل ويكفيلد.. لم يدهشني أن أجد مستر ميكاوبر قد غدا سكرتيرا ليوريا هيب، وأنه يؤدي عمله بمنتهى الجد.. واستقبلني مرحبا، ولكن ليس بحماسة الأيام الغابرة، فقد غدا في خلقه وطباعه صورة من سيده يوريا هيب، لكن القدر كان يختزن لي متعة كبرى، هي لقاء آجنس.. ويا للنشوة التي تحطفت مشاعري وأنا أجلس معها، فأجدها كما عهدتها دائما: نفس الفتاة المخلصة في ودها، إنها وحدها التي وجدت الكلمات المناسبة التي تدخل السكينة على قلبي.. وبالقرب منها وحدها استعدت هدوئي.. وإليها وحدها جرؤت على أن أفتح قلبي على مصراعيه، من غير أن أخشى مغبة ذلك..وسردت عليها تفصيلات الأحداث التي وقعت خلال الأيام الأخيرة.. فأصغت إليها باهتمام شديد.. ثم سألتها:

– الآن يا آجنس.. ماذا ينبغي أن أفعل؟.. بماذا تشيرين عليَ؟

– أرى من الأوفق أن تكتب إلى العانستين – فإن العمل في الخفاء ليس من شيمتك – فتصف لهما بصراحة تامة كل ما جرى.. وتلتمس منها الاذن في أن تذهب لتزورهما.. ثم يحسن أن تضيف أيضا أنك –نظرا لحداثة سنك– سوف تكون سعيدا بأن تتبع ما تشيران به عليك من نصائح، فيما يتصل بدورا.. التي صح عزمك نهائيا على أن تتخذها زوجة لك، حين تسمح لهما الظروف بالتفكير في مشروع زواجها..

هكذا حدثتني آجنس الأمر الذي أثلج صدري وجعلني أغادرها آخر الأمر بقلب قد تخفف من حمله الثقيل، وروح مطمئنة إلى

المستقبل بعد أن اعتزمت أن أقضي الأمسية في تدبيج تلك الرسالة، وفي أثناء خروجي مررت بغرفة المكتب، فوجدت مستر ويكفيلد الذي تفضل فعرض علي – بموافقة يوريا – حجرة في منزله أقيم بها مدة بقائي في كانتربري.. وقبلت ما عرضه علي.. وعدت ساعة العشاء، طروبا بالمكث مع آجنس لكنني لم أكن قد حسبت لمدام هيب – والدة يوريا – أي حساب، فآلمني أن عينيها الحادتين لم تفارقانا لحظة، سواء قبل العشاء، أو أثناءه، أو بعده.. وهكذا لم أستطع أن أطلع آجنس على الخطاب الذي كتبته!

لقد بسط يوريا وأمه ظلهما القاتم على البيت، مثل خفاشين كئيبين، وصارا يتشبثان بكل من يوجد بين جدرانه.. وقد بدأت أستشف حيلتهما الماكرة التي يعمدان إليها، فازداد لذلك اضطرابي وقلقي على آجنس وأبيها من سوء ما يدبران لهما.. وقد أيدت الحقائق ظني حين لحق بي يوريا في اليوم التالي في طريق رامجيت وسألني عما إذا كنت أعتزم منافسته في طلب يد الآنسة ويكفيلد ..

فأجبته قائلا: "إن آجنس بالنسبة لي في مرتبة الأخت الشقيقة وإنني أكن لها حبا أخويا خالصا، وإنني فوق ذلك خطيب فتاة أخرى، وحسبك ذلك داعيا للاطمئنان.."

وعند ذلك أجابني بقوله: "إذن.. لماذا لم تبح لي بذلك من قبل، كما بحت لك أنا بسري؟ الآن أتبين بوضوح أنك لم تحبني يوما مثل ما أحببتك أنا"

وفيما هو يقول ذلك شد على يدي بأصابعه الرطبة اللزجة، بحيث

لم أقو على التخلص من قبضته، برغم المجهود الذي بذلته، وقلت له بعد فترة صمت:

– أصغ إليَ قبل أن ندع هذا الموضوع، يحسن أن تعلم أنني أعتبر آجنس أبعد منالاً عنك من القمر الذي يضئ لنا الليلة.

– أنت تعتبرني أقل من أن أنالها.. أليس كذلك؟

– لست أحب أن أسمعك تتخذ من الضعة حرفة تستغلها كيفما شئت لتحقيق أطماعك.

فقال وهو ينظر إليَ نظرة ماكرة: "لكنها هي في الواقع صاحبة الفضل عليَ في الارتفاع المطرد الذي أحرزه.. وفي أنني غدوت على جانب من السطوة والنفوذ".

وقد نطق بهذه الكلمات الأخيرة بلهجة ارتياح صفيقة، كشفت لي شعور الغرور الذي يخفيه وراء تواضعه الظاهري، والطموح الوحشي الخليق بأن يقود ذلك الرجل إلى ارتكاب أفظع ما يمكن أن يرتكب –إذا اقتضى الأمر ذلك– كي يشبع في نفسه ذلك الغرور، وبعد العشاء، طلب يوريا من الساقي أن يقدم لنا أقداحا من النبيذ احتفاء بوجودي.. وبعد أن شرب نخب صحتي قال موجها كلامه إلى شريكه:

– ويكفيلد.. كنت أريد أن نشرب الآن نخب الاهة جنسها – يقصد آجنس– لكنني أدنى من أن أكون أهلا لذلك، ومن ثم فأنا قانع بأن أخصها باعجابي.. وتبجيلي.

ولمحت تغيرا مفاجئا طرأ على وجه مستر ويكفيلد.. ثم رفع الرجل يديه إلى صدغيه، كأنما ليقاوم ألما مخيا انتابه.. بينما أردف يوريا بغير أن ينظر إليه:

– آجنس.. نعم آجنس ويكفيلد.. لست أخشى أن أقولها، ولو كنت أستطيع البوح بما في قلبي، كما يفعل الأصدقاء، لقلت: إنه لمن دواعي الفخر أن يكون المرء أبا لها.. أما أن يكون زوجا؟

لكن صرخة رهيبة شلت الكلمات على شفتيه، في الوقت الذي سمع فيه صوت قدح ينكسر، كان مستر ويكفيلد قد ألقي إلى الأرض بالكأس، واعتدل في جلسته وهو يرتجف كالريشة من فرط الانفعال.. فهتف يوريا متسائلا، من غير أن يبدي تأثرا بما حدث، وإن يكن الشحوب المفاجئ الذي كسا وجهه قد فضح انزعاجه:

– ماذا جرى؟.. أعتقد أنه ليس ثمة ما يوجب هذا الغضب الصارخ من جانبك يا مستر ويكفيلد؟.. إن لي – مثل أي رجل آخر – الحق في أن أطمع في أن أجعل من ابنتك زوجة لي.. بل إن لي في هذا المجال حقوقا أكثر مما لغيري..

وأحطت مستر ويكفيلد بذراعي، مناشدا إياه أن يهدأ، من أجل آجنس.. وجعلت أذكره بكل ما عساه أن يلمس شغاف قلبه ويعيد إليه سيطرته على أعصابه.. فقال لي أخيرا:

– أنا أعلم مركزك أنت عندي.. أنت وابنتي الغالية.. ولكن انظر بربك إليه.

وأشار بأصبعه إلى يوريا.. وكان وجه هذا قد غدا في صفرة الأموات، وانزوى في ركن قصي من الحجرة. ثم استطرد رب البيت:

– انظر إلى جلادي.. لقد تنازلت له شيئا فشيئا عن اسمي، وسمعتي وطمأنينتي، ومركزي، وبيتي فقال يوريا يقاطعه:

– إذا كنت قد أخذتها كلها، فإنما فعلت لصالحك.. وإذا رأيت أنني قد تماديت ففي وسعي أن أتراجع. لا غضاضة في ذلك!

فصاح مستر ويكفيلد:

– إنه يجرؤ على أن ينسب الأمر لصالحي وحدي.. انظروا خدعته.. أترون؟ وعندئذ قال يوريا وهو يستدير نحوي:

– يحسن بك أن تمنعه من الاستطراد يا كوبرفيلد، فإنه سيتفوه بأقوال سوف يندم عليها بعد ذلك، بل سوف تندم أنت على سماعها.

لكن مستر ويكفيلد لم يستطع قمع طوفان مشاعره التي طال كبتها.. فوصف لي بأي أسلوب من الرياء والمداهنة زج يوريا هيب بنفسه في أعماله، ثم في بيته وأسرته، وأخيرا في مسائله الشخصية.. ثم لام الأب نفسه في مرارة على كونه قد أهمل بتأثير الفتى السيئ أعز الناس عليه: ابنته!. فهل هو في حاجة إلى مزيد من القول بعد هذا؟

وإذ ذاك أجاب يوريا هيب في لهجة المتحدي:

– ما كنت في حاجة إلى سرد نصف هذا الذي سردته.. لكنه تأثير النبيذ ولا شك..

وفي هذه اللحظة دخلت آجنس الحجرة.. ومن النظرة التي رمقتني بها فهمت أنها قد استنتجت ما حدث في غيابها على وجه التقريب.. فشحب وجهها وقالت:

– إنك لست بخير يا أبي. تعال معي وحين خرجا معا قال لي يوريا:

– إن ما حدث غير ذي أهمية يا مستر كوبرفيلد.. ولن يبقى له أثر في الغد.. وسترى أنني ومستر ويكفيلد سوف نصبح صديقين من جديد.. ونتصافى فلم أعبأ بالرد عليه. وخرجت لأستأذن من آجنس وأبيها في الرحيل، فقد كنت على أهبة العودة إلى لندن في فجر اليوم التالي، وفي الصباح، لم أكد أصل إلى العربة التي ستقلني إلى لندن حتى وجدت يوريا هيب في انتظاري، وقد جاء ليودعني فيما زعم، وبعد أن أفاض في الاعتذار إلي عما حدث، نيابة عن آل ويكفيلد..

سألني: "كوبرفيلد.. هل حدث لك يوما أن قطفت ثمرة قبل أن تنضج؟"

فأجبته: "هذا يحدث أحيانا"

فقال: "حسنا!. هذا بالضبط ما فعلته أنا ليلة أمس.. ولكن صبرا.. إن الثمرة سوف تنضج!".

***

بعد ساعات كنت أزور قبر أمي.. والتقيت مصادفة بمستر

بيجوتي.. فروي لي ما وقع له منذ آخر لقاء بيننا.. إن المسكين قد ظل يبحث عن آثار ابنة أخية الهاربة إميلي حتى حدود فرنسا تبعا للمعلومات المتفرقة التي جمعها من هنا وهناك.. لكنه عاد من رحلته الشاقة بخفي حنين. ومع ذلك فهو لم ييأس، وإنما هو يتأهب لاستئناف بحثه في اتجاه آخر.. وقد أطلعته السيدة جامدج على خطاب تلقته من إميلي.. تتوسل فيه إليها أن توافيها بأنباء عمها المحبوب، وتؤكد أنها تحبه أكثر من أي وقت مضى.. وعينت الفتاة لها عنوانا خاصا ترسل إليه المعلومات التي تريدها.. وختمت خطابها مكررة طلب الصفح والغفران من عمها.. ومن هام أيضا، مؤكدة للاثنين أنها تخصهما على الدوام بصلواتها الحارة!

الفصل الحادي عشر

تلقيت أخيرا ردا من العانستين اللتين تعيش دورا معهما.. وقد جاء فيه: "إننا نهدي تحياتنا إلى مستر كوبرفيلد. وقد وضعنا مسألته موضع الرعاية، وسنعني بتكوين رأي في الموضوع..وإذا أراد أن يتفضل بزيارتنا، في يوم معين، بصحبة صديق نثق فيه، فسوف يسعدنا أن نستقبله على الرحب والسعة ونبحث الأمر وإياه"، وعلى أثر ذلك، بعثت إليهما بخطاب آخر أعربت فيه عن أطيب تمنياتي واحترامي الوافر لهما، ثم أبلغتهما أني سأتشرف بزيارتهما في الموعد والظروف التي عينتاها في خطابهما.. واتفقت مع صديقي ترادل على أن يصحبني في هذه الزيارة.. وبعد أن استعنت بعمتي على اتقان هندامي توجهت معه لزيارة الآنسة لافينيا والآنسة كلاريسا سبنلو..

دخلنا حجرة استقبال صغيرة أنيقة، فوجدنا نفسينا وجها لوجه أمام عانستين ضئيلتي الجسم، لا تقلان عن صالونهما جاذبية وأناقة، عيونهما صغيرة مستديرة، تشبه إلى حد كبير عيون عصفورين من عصافير الكناريا.. وحركتهما عنيفة حادة، ومشيتهما أقرب إلى القفز.. وتكلمت الآنسة لافينيا أولا، محتفظة بحق الأسبقية على شقيقتها، لا بحكم السن وإنما –كما تبينت فيما بعد– بحكم أنه كان لها يوما خاطب، مات قبل أن يفاتحها بحبه!

قالت العانس: "إذا كنا –أختي وأنا– قد فهمنا مسألتك حق الفهم

يا مستر كوبرفيلد، فأنت تطلب منا الإذن في أن تستقبل هنا بوصفك الخاطب الرسمي لابنة أخينا.. وقد عرضنا خطابك عليها، لأننا لا نشك في أنك تحبها.. لكننا نسائل أنفسنا: إلى أي مدى نستطيع الاعتماد على عمق العاطفة وطول أمدها عند شابين مثلكما أنت وابنة أخينا؟"

فأجبت في حرارة بأنني أحب دورا أكثر مما يستطيع أي إنسان أن يتصور أو يصدق، بل أكثر مما أستطيع أنا نفسي أن أعبر.. وقلت: إن أصدقائي جميعا يعلمون ذلك وكذلك عمتي، التي لمست بنفسها قوة عاطفتي، واستشهدت بصديقي ترادل.. فسارع إلى تأييدي في حماسة، وأخذ يتحدث في ذلك بلهجة رائعة كان لها على العانستين تأثير كبير. ولما انتهى من خطبته البليغة، قالت الآنسة لافينيا:

– يبدو لنا أنه من الأحوط أن نزن بأنفسنا قدر هذه العواطف وفي أثناء ذلك نسمح لمستر كوبرفيلد بزيارتنا، على أن يترك لنا الفرصة المناسبة لإعلان خطبته لابنة أخينا بصفة رسمية.

فقال لي ترادل: "أعتقد أنك لن تجد عرضا أكثر تعقلا واعتدالا من هذا العرض".

فأجبت موجها كلامي إلى مضيفتي: "هذا شئ مؤكد!. ولن أنسى قط طيبة الآنستين الكريمتين" وهنا أردفت الآنسة لافينيا: "كل هذا بشرط ألا يتم –بغير واسطتنا وعلمنا– أي اتصال بينك وبين ابنة أخينا.. وألا يقدم مستر كوبرفيلد على أية خطوة تتصل بها بغير أن نكون على علم بها قبل وقوعها!" فقالت الآنسة كلاريسا: "سوف يسرنا أن نستقبل

مستر كوبرفيلد للعشاء كل يوم أحد، إذا كان ذلك يناسبه!" فأومأت برأسي دلالة على الموافقة.. بينما استطردت الآنسة كلاريسا فقالت: "وفي خلال الأسبوع سوف يسعدنا أن نستقبل مستر كوبرفيلد وقت تناول الشاي، حوالي منتصف الساعة السادسة!" فقبلت هذا مرحبا شاكرا، وأردفت الآنسة كلاريسا قائلة:

– أخيرا.. إذا كانت الآنسة تروتوود ترغب في زيارتنا فنحن نرحب باستقبالها، وبرد الزيارة إليها!

عندئذ انحنيت فقبلت يد كل من الآنستين ثم نهضت الأولى، وهي تقفز في مشيتها كالأوزة، واستأذنت من ترادل في أن تنتحي بي جانبا، ورجت مني أن أتبعها إلى خارج الحجرة، وأطعتها وأنا أرتجف خوفا من المجهول.. لكن مخاوفي تبدلت إلى فرح حين دخلت الحجرة التي قادتني إليها، فرأيت دورا قد ألصقت أنفها بالحائط وراء الباب، وسدت أذنيها بيديها، بينما رقد كلبها جيب في حوضه الخاص، وقد لف رأسه في منشفة.. يا لله. ما كان أجمل حبيبتي في ثوبها الأسود. وبرغم الدموع التي كانت تسيل من عينيها فقد بدا عليها السرور برؤيتي.. وحين خرج جيب من مغسله جلسنا نلاعبه ونمرح نحن الثلاثة معا.

ولست أدري كم من الوقت كان يجب أن أبقى، لو لم تأت الآنسة "لافينيا" لتبحث عني.. وقد سر ترادل حين رأى السعادة مرتسمة على وجهي، ثم رحلنا معا متشابكي الذراعين في حال من المرح لا يوصف: هو يتكلم عن حبيبته صوفي.. وأنا عن حبيبتي دورا.

وفي الأيام التالية سار كل شئ حسب الشروط المتفق عليها.. وحظيت عمتي بدورها باعجاب دورا وعمتيها العانستين، ولم يبق سوى جيب الذي أبى أن يرضى عنها، فظل يلاحقها بنباحه ويزمجر في وجودها حتى اضطرت دورا إلى أن تعصب عينيه وتوثقه في حوضه في كل مرة تزورها فيها عمتي.

ومع مضي الزمن، تبينت أن جميع الذين يختلطون بدورا يعاملونها كما لو كانت طفلة ساذجة، الأمر الذي ساءني بعض الشئ، فحاولت وضع الأمور في نصابها بإقناعها بأنها لم تعد طفلة، وأنها ينبغي أن تنظر إلى الأشياء نظرة أكثر جدا.. ولكنني لم أنجح إلا في استدرار دموعها في كل مرة كنت أحدثها فيها حول هذا الموضوع.. وكانت تقول لي: "إنه لا خير في خطبتنا إذا كان الغرض منها مثل هذا التقريع في كل حين" ومرة أخرى.. خيل إلي أني أحرزت بعض النجاح: طلبت مني أن أحضر لها كتابا في الطهي، بعد أن طالما نصحت لها بذلك.. لكنها لم تكد تتصفحه حتى قالت: "إنه يسبب لي صداعا، وإن رسومه مضحكة".. ثم أخذت تطمس رسوم الكتاب، وترسم إلى جانبها رسوما كروكية تمثلني أنا وكلبها العزيز، وإذ ذاك حاولت أن أوضح لها الأمور بطريقة عملية، بإعطائها دروسا شفوية، فقلت لها:

– افرضي أننا قد تزوجنا.. وإنك تبغين شراء كتف من الضأن للغداء، فكيف تشترينها؟

ففكرت لحظة، ثم صاحت بلهجة الظافرة:

– لست في حاجة إلى أن أتعلم كيف أشتريها.. فإن القصاب نفسه سيعرف كيف يبيعها لي وهكذا بإجابات من هذا الطراز، ثبطت عزيمتي وزهدتني في الدروس الشفوية التي كنت قد أخذت نفسي بإعطائها إياها وانتهى الأمر بكتاب الطهي إلى أن صار لعبة يلهو بها الكلب، وشعرت بلهفة على تعريف دورا إلى آجنس.. وحين حدثت الآنسة لافينيا في هذا الأمر كانت من الظرف بحيث دعت آجنس إلى الحضور لتناول الشاي عندها مساء يوم السبت التالي، وفي الموعد المضروب جئت بصديقتي العزيزة إلى منزل العمتين، ورغم كل ما استطعت أن أقوله لها خلال الطريق عن خطيبتي الصغيرة، كنت شديد الشوق إلى معرفة ما يكون رأيها في دورا بعد أن تعرفها بنفسها وكما هي العادة، اقتضى الأمر أن ألح على دورا مرات كي تدخل الصالون لتقابل الضيفة الجديدة، ثم دخلته آخر الأمر بعد أن أخذت ذراعها بيدي.. وكان الدم يكاد يطفر من وجهها مما زادها جمالاً على جمال..كانت دورا تخشى آجنس.. لكنها حين رأت وجهها الجميل الباسم.. وثبت إلى عنقها وتعلقت بها وهي تطلق صيحة دهشة وفرح..

وأسعدتني النظرة المنطوية على الإعزاز والمحبة، التي رمقت بها آجنس خطيبتي إلى حد فاق كل مشاعر السعادة التي تذوقتها من قبل.. وحتى جيب استقبل آجنس مرحبا، معلنا رضاه التام عنها الأمر الذي سرت له دورا وجعلها تتنفس الصعداء. وبعد الفراغ من الشاي قالت دورا للضيفة الصديقة:

– أرى جيدا أنك تحبينني قليلا، على أني قانعة بهذا القدر من الحب، لأنني أنا أحبك حبا جزيلا.

ثم التفتت إلي بينما كانت آجنس تصافح العمتين مودعة، وقالت لي:

– لو كانت آجنس صديقتي قبل سنوات لكنت أقل جهلا مما أنا الآن وأفضل في نواح كثيرة!

وقد كررت هذا القول على مسامع آجنس ونحن نستقل العربة معا إلى بيتها، وأضفت أنا إلى ذلك قائلا:– عندما كنت جالسة بقربها، كان يبدو عليك كأنك ملاكها الطيب، مثلما أنت ملاكي أنا أيضا فقالت الفتاة: "ملاك فقير.. لكنه مخلص".

ثم سألتها: "هل طرأت تغيرات على بيتكم؟". فأجابتني قائلة:

– كلا. لا تزعج نفسك بالتفكير في مشكلاتنا.. ولو صار في إمكانك يوما أن تنقذني من ورطة، فكن على ثقة من بي سوف ألجأ إليك طالبة معونتك.. فليباركك الله على الدوا

م فسألتها: "هل ستعودين قريبا إلى لندن؟"

فقالت: "قد لا أعود قريبا، فمصلحة أبي تقتضيني البقاء في البيت. وأعتقد أننا لن نلتقي في القريب العاجل، لكنني سأراسل دورا.. وهكذا يستطيع كلانا أن يعرف أخبار الآخر وأحواله بواسطتها".

* * *

ولم يقدر النجاح لحفل الاستقبال الأول الذي أقمناه عقب زواجنا، وكنا قد دعونا ترادل للعشاء. فأعدت المائدة بغير نظام، وبدت اللحوم غير ناضجة ألبتة، حتى ليصعب على آكل لحوم البشر أن يهضمها. والمحار لم ينزع قشره.. لكن ترادل كان من كرم الخلق بحيث صرح بأن تلك الوجبة كانت ألذ ما تناوله في حياته، والواقع أنني لو لم أعثر في الثلاجة على قطعة من لحم الخنزير قدمتها له، لعاد إلى بيته فارغ المعدة من أي طعام! وفي هذه المرة، أدركت دورا من تلقاء نفسها أنها كانت المقصرة.. فجاءتني بعد خروج ضيفنا وهي في أشد حالات الاضطراب، وطلبت مني أن أعلمها ما تجهله من واجبات الضيافة.. ثم تنهدت وقالت: "لو أتيح لي أن أمضي عاما واحدا في الأقاليم، مع آجنس، لما صرت جاهلة هكذا.. وأحسب أنني أستحق أن تطلق على اسم المرأة الطفلة".. لا لتستعمله بدلا من اسم "دورا" وإنما لكي تلتمس لي العذر عن كل نقائصي ونواحي عجزي وقصوري..

وبعد أيام بشرتني بأنها غدت ربة منزل قديرة.. فقد جمعت شمل صحائف كتاب الطهي الذي مزقه الكلب، وراحت تلتهمها وتستوعبها جهد طاقتها.. كما لوثت انامها بالحبر وهي تتدرب على إعداد الحساب لكن فنها المنزلي توقف عند هذا الحد.. ولم تلبث أن طلبت إلى أن أصرح لها بالجلوس بالقرب مني في المساء، أثناء ساعات عملي، كي تغمس لي ريشتي في الحبر وتناولني إياها!..

وقد صارت تفعل ذلك بحماسة وفرحة تندي لهما عيناي بالدمع وأنا أستعيد اليوم ذكراهما..كذلك ثبتت مفاتيح البيت في حزامها، وإن

أرها يوما تستخدمها في أي قفل من الأقفال.. على أنها بدت سعيدة بذلك، فصرت أنا سعيدا بسعادتها..

ولم تكن عمتي أقل مني حبا لزوجتي. فكانت تفعل كل ما في وسعها كي ترضيها: تتملق كلبها برغم أنه لا يستجيب لملقها.. وتصغي لعزفها على القيثارة بانتباه، مع أنها لم تكن تتذوق الموسيقى ألبتة أو تميل إليها!. وتسير مسافات طويلة على قدميها كي تجلب أي شئ تافه تعلم أن دورا راغبة فيه. وحين تصل تصيح من أسفل السلم بصوت طروب ما زلت أذكره:– أين الزهرة اليانعة؟

* * *

كان قد انقضى على زواجي نحو عام حين عدت ذات مساء من نزهة قمت بها وحدي.. فمررت في طريقي بمنزل ستيرفورث، ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي أمر فيها به منذ حادث فراره مع إميلي. وقد كنت في كل مرة أحس انقباضا من جراء الكآبة والوحشة اللتين تخيمان على البيت، والظلام الذي يسوده –أو الأضواء القليلة– ثم السكون الشامل، الذي لا يعكره ضجيج.. وفي هذه المرة، لم أكد أجاوز المنزل بقليل، حتى سمعت صوتا يناديني.. فعدت أدراجي.. وإذا خادمة ترجوني أن أدخل كي أتحدث إلى الآنسة دارتل. دخلت فألفيتها أشد شحوبا ونحولا مما كانت، وقد شعت عيناها بريقا محموما، وبدا عليها طابع عدم المبالاة ولم تكن مقابلتنا ودية ألبتة.. وكانت بي لهفة إلى إنهائها من جانبي بأسرع ما أستطيع.. فابتدرت الفتاة قائلا:

– قيل لي أنك تودين التحدث إلي؟

– نعم.. هل وجدوا الفتاة أخيرا؟

–كلا!

– إذن فلن يجدوها بعد الآن فيما أظن، لقد فرت من جديد.. وربما تكون في الساعة الراهنة قد ماتت. هل تريد أن تعرف ما حدث؟

ثم نهضت وعلى شفتيها ابتسامة ازدراء، وسارت خطوات، وهتفت في صوت مختنق باسم خادم لستير فورث، وكأنما كان الرجل الذي ظهر أمامي على الفور، ينتظر ذلك النداء من قبل، وسرعان ما عرفت أنه الخادم الخاص لصديقي ستيرفورث، أو الأداة السلبية لتنفيذ كل رغباته أو بالأحرى نزواته!

وقالت له الفتاة بلهجة آمرة: "صف لمستر كوبرفيلد ما حدث!"

فروى الرجل كيف تنقل ستيرفورث بالفتاة "إميلي" في أنحاء فرنسا، وسويسرا، وإيطاليا، كي يمدها بالثقافة والمعلومات النافعة لها، وكيف استوعبت الفتاة هذه المعلومات بسرعة خارقة.. لكنه لم يلبث أن انتابه الضجر من فرط إلحاح الفتاة عليه في أن يتزوجها، ومن الكآبة التي دهمتها حين أظهر ترددا في إتمام تلك الخطوة.. وأخيرا، وتحت تأثير اليأس والندم، اختفت الفتاة يوما من "الفيللا" التي كانا يعيشان فيها في نابولي.. ولم يظهر لها بعد ذلك أي أثر، وعندئذ تدخلت روزا دارتل في الحديث قائلة في فرحة خبيثة:

– إنها ولا ريب قد غرقت.

فأجاب الرجل في اقتضاب: "ربما"

فأردفت هي قائلة له: "تستطيع أن تنسحب".

وحين غادرت المنزل كان في ذهني خاطر واحد: أن أخطر مستر "بيجوتي" بما جرى بأسرع ما يمكن! وكنت أعلم أنه على أثر كل محاولة من محاولاته العقيمة يعود كي يقيم مؤقتا بالحجرة التي كانت تشغلها "بيجوتي" في لندن.. فتوجهت إليها في مساء اليوم التالي.. ووجدته هناك لحسن الحظ، فقلت له وأنا أتناول المقعد الذي قدمه لي:

– مستر بيجوتي.. لقد بلغتني أنباء جديدة!

–عن إميلي؟

– نعم.. لقد هجرت ستير فورث!

فشحب وجهه.. وحزرت ما دار في فكره، فأردفت:

– إنني أرجح أنها ما زالت على قيد الحياة.

فقال مؤمنا على رأيي: "وأنا أعتقد ذلك بدوري!"

فقلت له: "والآن.. ما العمل يا صديقي الشجاع؟"

فقال: "أغلب الظن أنها إذا لم تعد مباشرة إلى البيت، فسوف تأتي لتختبئ في لندن دون غيرها من البلاد. وأنا واثق من أنها لن تعود إلى البيت"

– إذن فصدقني أنك لكي تجدها هنا. ينبغي أن تتوجه إلى مارت.. تلك المرأة التي جاءت لتراها ذات يوم وخفت إلى نجدتها. إنها تقطن لندن وكثيرا ما أصادفها!

وبعد أيام رافقته إلى هناك.. فوعدته المرأة أن تبحث عن الهاربة بكل الوسائل، على أني لم أشر بكلمة إلى كل هذه الأحداث داخل بيتي، حيث كانت المتاعب العائلية تزداد كل يوم. وكنت قد حاولت عبثا أن أكيف دورا بما يتفق والواجبات المنزلية الملقاة على عاتقها..وانتهت محاولتي الأخيرة بشرائي عقدا للكلب وقرطين لسيدته، أملا في تجفيف الدموع التي جعلتها تذرفها!

والذي يحدث غالبا أن الإنسان الذي ينشد سعادة الآخرين، ينتهي بأن يجد سعادته هو الآخر.. ولعل هذا ما جعلني – بعد أن ضحيت بسعادتي في سبيل دورا – نعمت بالعام الثاني للزواج على صورة أفضل كثيرا، ومع ذلك، ففي بداية الشتاء بدأت زوجتي الصغيرة المرهفة الصحة تسبب لي بعض القلق، لم تعد تقوى على صعود السلالم وهبوطها، بل صرت أحملها على ذراعي كل صباح إلى الصالون، وأعود بها على ذراعي كل مساء إلى مخدعها.. وبرغم ذلك، ظلت محتفظة بمرحها، إلى حد جعلنا لا نشك في أنها لن تلبث أن تسترد صحتها في أمد قريب.. وطلب منا الأطباء أن ننتظر، لكني حين بدأت أحسها خفيفة الوزن على ذراعي، صار يخيل إلي أنني أحملها إلى مناطق غير مرئية ولا ملموسة، فكنت لذلك أعاني رعشة في قلبي وبرودة في أطرافي، ولاسيما

حين سمعت عمتي تقول لها ذات مساء: "طابت ليلتك يا زهرة الربيع"..

رباه.. إن أزهار الربيع سريعة الذبول.

كان مستر "بيجوتي" يزورنا بين حين وآخر، فقد كانت دورا تحبه وترحب به.. وفي ذات مساء، فيما أنا أرافقه إلى باب الحديقة قال لي:

– لقد رأيت مارت مرة ثانية، وطلبت مني ألا أغادر لندن مهما تكن الظروف قبل أن أراها!

– وهل ذكرت لك سبب هذا الإلحاح!

– سألتها لكنها أكدت أنها لن تستطيع الإفضاء به..!

وافترقنا عند هذا الحد..وبعد نحو أسبوعين، لمحت ذات ليلة وراء قضبان سور الحديقة مارت بلحمها ودمها، وقد بدا عليها أنها تنتظرني.. فهرعت نحوها وسألتني:

– هل تستطيع الحضور معي حالا؟.. لقد ذهبت أبحث عن مستر بيجوتي.. لكني لم أجده في حجرته، فتركت له ورقة على المائدة بها عنوان المكان الذي ينبغي أن يذهب إليه!

تبعتها من فوري، فأشارت إلى عربة مارة في الطريق.. وركبناها معا وعندئذ قالت هي للحوذي: "اذهب إلى ميدان جولدن، ومضت بنا العربة وهي صامتة لم تنبس بكلمة.. حتى وصلنا إلى حي فقير، فأمرت الحوذي بالوقوف وأوصته أن ينتظر أمام أحد مداخل الميدان ثم هبطت من العربة وأنا في أثرها، وتوجهت مسرعة إلى عمارة قديمة مهدمة،

مزدحمة بالسكان الذين ليسوا أقل منها استحقاقا للرثاء".. وفيما نحن نهم بالصعود إلى الطابق الأخير لمحت امرأة تتقدمنا.. ثم رأيتها تقف، وتفتح بابا، وقالت لي مارت هامسة: "ما معنى هذا؟. إنها تدخل حجرتي، بينما أنا لا أعرفها".

أما أنا فقد عرفتها جيدا.. لم تكن غير روزا دارتل. وبعد أن عرفتها بأمرها في كلمات قلائل، بصوت خافت قادتني مارت في خطي متلصصة إلى حجرة صغيرة تتصل بالحجرة التي نحن بصددها، حيث صار في وسعنا أن نسمع -إذا لم نر- ما يجري قيد خطوات منا، عبر الباب المفتوح قليلا، وشهدت مشهدا رهيبا.. كانت روزا دارتل -في أسوأ حالات الانفعال والغضب- وجها لوجه أمام التعسة إميلي التي كانت ذليلة نادمة بقدر ما كانت غريمتها أسيرة لغيرة جنونية، وتحت تأثير غضب مخيف هادر، راحت الأخيرة تبتكر ألوانا من السخريات الجارحة، والإهانات الظالمة لإذلال المخلوقة التعسة التي أمامها.. بل اجترأت على ضرب المسكينة ضربا أحدث بها جروحا، رغم توسلاتها ودموعها.. ولم أستطع البقاء طويلا بمنأى عن المأساة.. فهممت بالتدخل.. حين سمعت على السلم خطوات تبينت صاحبها، فقلت لنفسي وأنا أتنفس الصعداء:- أخيرا.. لقد جاء

وفتح باب الحجرة وفيما كانت روزا دارتل تعبره إلى الخارج، وهي تلقي وراءها إلى الفتاة نظرة كراهية عميقة، كاد مستر بيجوتي يصدمها صدمة عنيفة وهو يهرع إلى داخل الحجرة، وسمعنا صرخة عالية: عمي،

ودخلت بدوري فإذا مستر بيجوتي يحتضن بين ذراعيه ابنة أخيه، مغشيا عليها.. وبادرني هو قائلا: "مستر دافي.. إني لأشكر الله تعالى لكونه أتاح لي نعمة العثور على طفلتي، وفق ما تمنيت"، ثم غطى وجه الفتاة بمنديل.. وهبط السلم ورائي إلى العربة التي كانت في انتظاري..

* * *

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، فيما كنت أتنزه في الحديقة مع عمتي، جاء من يقول لي إن مستر بيجوتي يبغي التحدث إليّ. وكنت قد رويت لعمتي كل ما جرى في الليلة السابقة. فلما وقع بصرها على الرجل الشهم هرعت نحوه ووضعت يدها على كتفه من غير أن تنطق بحرف. ففهم شعورها، وشكرها بنظرة ليست أقل من صمتها تعبيرا وحين أرادت أن تنسحب، طلب منها أن تبقى قائلا: "إني ليسعدني أن أتكلم في حضورك يا سيدتي"، ثم قص علينا كل ما روته له إميلي بلسانها، فقال: "إنها على أثر فرارها من نابولي، اختبأت بين الصخور التي على شاطئ البحر. وكانت الليلة ظلماء معتمة، فانكفأت على وجهها وجرحت جرحا بليغا. وفي الصباح عثرت عليها امرأة ذات مروءة فأخذتها عندها، برغم أنها لا تعرفها"، ثم استطرد الرجل بصوت مؤثر:

– وكانت المرأة بمثابة ملاك أرسلته السماء للعناية بصغيرتي إميلي. فليباركها الله، هي وزوجها وطفلها الصغير .. كان زوجها بحارا، ومن هنا كان في الإمكان أن تخفي الفتاة عندها وتصونها عن النظرات المتطفلة، بعد أن تلقت منها اعترافاتها.. وبعد قليل سقطت إميلي صريعة المرض،

وكانت حالتها خطيرة، فاعتنت بها حاميتها بتفان لا يمكن تصوره. ثم شفيت الفتاة تدريجا واستردت صحتها كاملة آخر الأمر، ولم يكن في ذهنها وقتئذ غير فكرة واحدة: العودة إلى المنزل العتيق، وبفضل زوج المرأة التي عثرت عليها، وجدت مكانا في سفينة صغيرة مسافرة إلى فرنسا وظلت أشهرا تتنقل بها من بلدة إلى بلدة، حتى وصلت إلى مرفأ استطاعت فيه أن تستقل سفينة تقلها إلى دوفر مباشرة"

واستطرد مستر بيجوتي قائلا:

– أنا أعلم أنها اتجهت فورا صوب البيت العتيق. ولكن خوفها من عدم صفحنا –كما ذكرت لي بنفسها– والشعور بالعار والمذلة، أوقفاها في منتصف الطريق، وجعلاها تأخذ طريقها إلى لندن. والله وحده يعلم ما كان عساه أن يصيبها لو لم يرسل إليها في محنتها، بواسع رحمته، تلك المرأة مارت كي تنقذها.

ولم يستطع المسكين أن يحجز دموعه، فتأثرنا جميعا. ثم أكمل قصته بعد أن استرد شيئا من هدوئه:

– لقد ذكرت مارت لها أنني ما زلت أخصها بحبي وحناني، وأني صفحت عنها ولا أتمنى شيئا قدر ما أتمنى أن أراها. ثم أخذتها مارت معها إلى حجرتها، وأثناء ذهابها للبحث عن مستر بيجوتي في اليوم التالي، تسللت الآنسة دارتل إلى مكانها وصبت جام غضبها وغيرتها عليه. أما كيف وممن استقت الأخيرة عنوان إميلي وعرفت بوصولها فسر لا يفهمه أحد. ثم ختم مستر "بيجوتي" مأساته بقوله:

– تبقى من كل هذا الكابوس المروع حقيقة واحدة: هي أني وجدت ابنتي إميلي واحتضنتها بين ذراعي، واتكأ رأسها الصغير على صدري. وما يهمني كل ما جرى لها فهي ما زالت كالعهد بها طفلتي الصغيرة المحبوبة، وقد أدركت أنها تستطيع أن تطمع في حناني ورقتي على الدوام. أو لا يغفر الله للتائبين ذنوبهم؟

وبكينا جميعا في صمت، وحين تمالكنا أنفسنا قلت للرجل:

– هل أعددت خطة ما للمستقبل يا صديقي الطيب؟

– نعم يا مستر دافي.. إن حياة جديدة تنتظرنا على شواطئ البحار. لقد ذهبت هذا الصباح إلى أحواض الميناء، وعلمت أن باخرة ستبحر بعد نحو ستة أسابيع إلى أستراليا. وقد قررنا أن نسافر على ظهرها.

– وحدكما؟

– نعم فالواقع يا مستر دافي أن أختي قد ألفت الحياة في هذه البلاد التي نشأت فيها، بحيث يصعب عليها أن تغادرها ثم أنها تعني بأمور هام. أما السيدة جامدج فسوف أكفل لها الحياة في منزل مريح تجد فيه ما تنشده من عناية وسعادة. والآن أريد أن أودع يارموث وقد كتبت إلى هام أخبره أنني ذاهب إليها في الغد..

–أو تريد أن أرافقك؟

– نعم، فإني أعتقد أن وجودك سوف ييسر كثيرا من الأمور!

وكانت صحة دورا في تلك الآونة متحسنة قليلا، فألحت عليَ كي

أصحب مستر بيجوتي.. وفي الصباح التالي رحلنا معا إلى يارموث وبعد ساعات معدودة كنا في مطبخ بيجوتي معها هي، و هام والسيدة جامدج التي أحضرها مستر بيجوتي بنفسه، وتقرحت العيون جميعا من البكاء، فقد كاشفهم مستر بيجوتي بعزمه على السفر وعلى أثر ذلك ذكر هام أنه يبغي القيام بجولة في الميناء، ففهمت أنه يريد أن يحدثني، وخرجت معه وابتدرني من فوره: "هل رأيتها يا مستر دافي؟"

– رأيتها لحظة واحدة فقط. فقد كانت مغشيا عليها!

فصمت برهة، ثم أردف: "هل ستراها مرة أخرى؟"

– أخشى أن يكون في ذلك إيلام لها.!

– هذا صحيح.. هذا صحيح!

– ومع ذلك، فإذا كان عندك ما تود أن تبلغه إليها فيسرني أن أكتبه إليها نيابة عنك!

– شكرا يا سيدي!. نعم، أريدها أن تعلم شيئا بالذات

–ما هو؟

– إنني صفحت عنها، فالواقع أنه ما كان ينبغي أن أصر على أن تتزوجني!. لقد كانت على الدوام تكن لي صداقة مكينة، بحيث كان يجب ألا أطالبها بالمستحيل!

–أهذا كل شئ؟

– كلا! هناك أيضا شئ آخر.. أود أن تفهمها أنني لن أحب فتاة أخرى مدى الحياة، وأنني سأظل أذكرها حتى آخر نسمة من حياتي، ولكن من غير أن تدرك مدى العذاب الذي أقاسيه حتى لا يسمم الألم حياتها!

وكان اليوم التالي موعد انتقال الأسرة نهائيا من السفينة "البيت البحري"، فذهبت لألقي نظرة وداع على المكان الذي كانت لي فيه ذكريات جميلة، منذ اليوم الأول الذي نمت فيه في الحجرة الصغيرة التي أعدت لي، وحيث كانت الريح تعصف وتصفر مثلما تفعل الآن وأبت السيدة جامدج أن تغادر البيت العتيق إلا بعد أن حصلت على وعد أكيد من مستر بيجوتي بأن يأخذها هي أيضا معه إلى أستراليا، ولم يكن شئ أبلغ تأثيرا في النفس من صراع المحبة والكرم الذي شهدته بين هذين المخلوقين النبيلين.

* * *

وحان موعد اللقاء الغامض الذي حدده لنا مستر ميكاوبر. ولم نعرف –عمتي وأنا– كيف نتصرف، في وقت لم نعد فيه نجرؤ على ترك دورا وحدها، على أنها لم تكد تفطن إلى حيرتنا حتى قالت لنا بلهجتها المتمردة العاصية وهي تهز خصلات شعرها الصغيرة حول وجهها الجميل:

– سأغضب غضبا شديدا إذا لم تتوجها في الموعد المحدد لمقابلة مستر ميكاوبر.

واستطردت تقول مهددة:

– لن أصفح عنكما. وسأطلق جيب عليكما.

وحين ألححنا في البقاء قالت تسألنا: "هل أنا مريضة إلى هذا الحد، حتى إنكما لا تريدان تركي؟" فصاحت بها عمتي: "يا للسخف!"

وهتفت أنا بدوري مستنكرا: "اية فكرة غريبة"

وعندئذ قالت الماكرة: "إذن فاذهبا كلاكما، وإلا أبيت أن أصدقكما".

ثم انخرطت في البكاء فكففنا عن الجدل والتردد، ولكي نطمئنها ونجلب الابتسام إلى شفتيها زعمنا أن صحتها أحسن كثيرا مما تظهر هي، وأنها تستغل عطفنا واهتمامنا كي تتدلل. وقد سرها هذا المزاح وأدخل البهجة على نفسها، فلما تركناها كانت في أعذاب حالات الإنشراح، وكان مستر ميكاوبر ينتظرنا في الفندق الذي حدده، وعلى وجهه نفس الصرامة والاكتئاب اللذين طالعنا بهما في المرة السابقة ولم نكد نراه على هذه الحال حتى عدلت عمتي من وضع شالها على كتفيها، وثبتت شرائط قبعتها، في حركة حازمة. بينما عقد ترادل أزرار معطفه حتى ياقته، ودفن مستر ديك قبعته في رأسه حتى أذنيه. وهكذا تأهب كل منا لمواجهة جميع الاحتمالات وبعد أن صافحنا مستر ميكاوبر، ومستر ديك بصفة خاصة، رجانا أن نلحق به خلال خمس دقائق عند مستر ويكفيلد. وأن نطلب مقابلة ابنته. وحين أدخلنا إلى حجرة المكتب، في

المنزل الذي قصدناه، وجدنا هيب في الغرفة. وحين رآنا أبدي حركة دهشة سرعان ما قمعها، وراحت نظرته الهاربة تتنقل من كل واحد منا إلى الآخر. ثم رحب بنا بلهجة صاحب البيت وأرسل سكرتيره مستر ميكاوبر كي يبحث عن آجنس، وبعد برهة هبطت الفتاة وحدها، وذكرت أن والدها مصاب بنوبة روماتيزم ألزمته غرفته. وكان يبدو عليها هي التعب والقلق، لكنها استردت ابتسامتها على الفور كي ترحب بنا.. ثم قال يوريا مخاطبا سكرتيره:

– تستطيع الآن أن تنسحب يا ميكاوبر.

وكانت هذه الكلمات هي المؤذنة بانفجار العاصفة فإن ميكاوبر لم يتحرك من مكانه. فصاح هيب:

– ألا تسمعني؟ – بل أسمعك!

– إذن.. فلماذا تبقى؟

فصاح ميكاوبر بصوت جهوري: "لأن.. ذلك يروقني"

كان ذلك بمثابة هزيم الرعد الذي يسبق العاصفة، وشحب وجه يوريا هيب، ثم قال:

– لقد كنت مسرفا مفرَطا في حقوقنا، ولكن إذا أضفت إلى ذلك عدم احترامك للنظام فسوف أضطر للإستغناء عن خدماتك.

– من الذي يجرؤ على أن ينسب إليَ التمرد على النظام؟ أهو أنت.. أيها النذل المسمى هيب؟!

وأذهلت المفاجأة الفتى، فسقط على مقعده متهالكا، ورمقنا جميعا بنظرة تنم عن الكراهية. ثم قال بصوت مختنق:

- إنها إذن مؤامرة أنت ولا شك زعيمها يا كوبرفيلد لقد كنت دائما تمقني، لكنني أرد لك الصاع صاعين. خذ حذرك.

فقلت بغير أن أتنازل بالرد على التعس:

- مستر ميكاوبر. إن مسلك هذا الشخص يعزز الشكوك التي تقولها لنا عنه. فكلمه وعامله كما يستحق وكان ذلك إيذانا بانفجار العاصفة فإن ميكاوبر أخذ يزيح النقاب -بصوت مدوَ- عن الرياء والنفاق اللذين تقرب بواسطتهما يوريا هيب من مستر ويكفيلد، حتى استطاع أن يصير شريكا له، ثم سيدا آمرا.. وبأي غدر خدعه.. وبأي خبث ودهاء تملك السندات التي عهد بها إليها ونقل لاسمه ثروة ويكفيلد الخاصة.. وهي كلها أمور يستطيع ميكاوبر إثباتها. نعم إنه يستطيع أن يثبت أنه لا يوجد في العالم غير هيب واحد، خلق ليكون مزورا شريرا، ولصا دنيئا، وكان ميكاوبر يطلق كل صفة من هذه الصفات بصوت قوي، وتوكيد مفعم بالاحتقار والاشمئزاز وغدا وجه هيب في لون الموتى، وعيناه في لون الدم، وكانت أهدابه نصف المغمضة تنفرج عند كل صيحة من غريمه كي تدع مقلتيه ترسلان وميضا من البغض والغيظ، وهتفت به أمه ملتاعة تناشده:

- هيب أرجو منك ألا تتصدى لهم. كن متواضعا كما علمتك دائما! فأجابها بلهجة حادة لم أسمعه يخاطبها بها من قبل:

– اسكتي يا أمي. إني أعرف ما ينبغي أن أفعل وأزاح يدها التي وضعتها على ذراعه، وهرع نحو الخزينة الحديدية التي كانت في ركن الحجرة وفتحها، وإذ ذاك أطلق صرخة رغب وفزع:

– أين الأوراق والدفاتر؟. إن لصا قد سرق الدفاتر!

فتدخل ترادل في الحديث قائلا في هدوء:

– لا تنزعج. إنها في أمان، في حوزتي!

وكم كانت دهشتي لحظتئذ حين رأيت عمتي تثب على يوريا وتمسكه من رقبة قميصه، ثم صاحت به، وهي تحني رأسه إلى أسفل:

– رد إليّ ما يخصني أيها التعس.

ثم التفتت إلى "آجنس" وقالت لها في رقة ظاهرة:

– آجنس. يا طفلتي العزيزة. لم أذكر يوما لإنسان أنني كنت قد عهدت بأموالي إلى أبيك، كي يستغلها لصالحي. لكنني لم أفهم إلا الآن فقط كيف ولماذا لم أتسلم أرباحها. إن هذا النذل هو المسئول. تعال يا تروت واجعله يرد لي ما أخذه مني.

وتوسطت بينهما، وجعلت عمتي تخلي سبيل الفتى، مؤكدا لها أننا جميعا سنعرف كيف نسترد حقوقنا من مستر هيب وفقا للقانون.. وحين هدأت استدار هيب نحوي متسائلا وهو يحدجني بنظرة ضارية: "ماذا تطلبون مني؟" فأجاب ترادل قائلا بالنيابة عني:

نطلب الآتي: أن ترد إليّ فورا وفي هذا المكان العقد الذي حصلت عليه من مستر ويكفيلد لصالحك، غشا وخداعا، ثم ترد إلي جميع المبالغ التي اختلستها. وأخيرا أن تترك في حوزتنا جميع الدفاتر والأوراق والحسابات التي توجد هنا سواء باسم شريكك أو باسمك الشخصي.

– حقا؟. أحسب أنكم ستتركون لي الوقت الكافي للتفكير قبل أن أرد عليكم!

– بلا شك!. ولكن في انتظار أن تعطينا الإجابات الشافية، عليك أن تلوذ بحجرتك الخاصة، وتمتنع عن الاتصال بأي مخلوق كان، بأية حجة من الحجج!

فصاح يوريا محتدا: "لن أفعل شيئا من هذا القبيل!"

– سوف تضطر إلى فعله في سجن "ميدستون". وسيذهب "كوبرفيلد" الآن فورا لكي يستدعي البوليس.. عندئذ جثت السيدة هيب على ركبتيها أمام آجنس وناشدتها أن تتدخل لتحميها هي وابنها يوريا. واعدة أن تفعل هي ما يأباه ابنها أما الابن – الذي كان جبنه يفوق غدره وخداعه – فقد راح يجفف العرق الذي أخذ يسيل على وجهه المفزوع. ثم قال لأمه: "كفى ضجيجا يا أماه. أحضري العقد"

فجاءت به بعد برهة مع أوراق أخرى عظيمة القيمة بالنسبة لنا. وإذا ذاك قال ترادل:

– في وسعك الآن أن تمضي لتفكر في البقية يا مستر هيب. وأنا سأتكفل باقامة حراسة دقيقة على باب حجرتك وخرج بعد أن رمانا بنظرة

حقد هائلة، ميكاوبر وأنا. وطلبت آجنس أن تعود إلى حجرة أبيها لتعنى به. بينما دعانا مستر ميكاوبر إلى الذهاب معه كي نقابل زوجته ونشهد أمامها بأن زوجها صار من جديد جديرا بالثقة، ولم يكن في استطاعتنا إلا أن نقبل. وتم الصلح بين الزوجين. واقترحت عمتي عليهما أن يذهبا للبحث عن الثراء في الخارج، قائلة لهما:

– أعرف أصدقاء لدافيد يعتزمون الإبحار قريبا إلى أستراليا. وهم قوم ذوو شهامة، لا يضنون بالعون على من ينشده. فلم لا تذهبون معهم؟

وبدا أن هذا الاقتراح قد أثار دهشة آل ميكاوبر، وترحيبهم في الوقت نفسه. ومع ذلك فإن الزوج عارض في شئ من الخجل بحجة عدم ملاءمة الطقس ونقص رأس المال، لكن عمتي قالت له: "إن الطقس هناك أجمل طقس في الدنيا بأسرها. أما رأس المال فليس في وسعنا أن نكافئك على الخدمة الجليلة التي أديتها لنا بأقل من أن نوفر لك رأس المال المطلوب".

وقوبل هذا القول من جانب آل "ميكاوبر" بضجة فرح وتهليل. وبدأ الجميع يتكلمون في وقت واحد عن أستراليا: هذا عن ذهبها، وذاك عن حيوان الكنجارو الذي يكثر فيها. بينما تحدث مستر ميكاوبر نفسه عن ماشيتها بخبرة الفلاح الأسترالي الأصيل وبشئ من الغضاضة انتزعت نفسي من تلك الجلسة الحافلة بالمرح والحماسة، كي أعود على عجل إلى جانب مريضتي الغالية.

وأسفاه لم يعد الأطباء يطالبونني الآن بالصبر. بل إن أقوالهم جعلتني أخشى ألا يعود اليوم الذي فيه أرى زوجتي الصغيرة تلهو في الشمس مع صديقها القديم جيب. وإني لأذكرها خلال الأيام القليلة السابقة لرحيلها..

كانت أجمل من أي وقت مضى، في تلك الهالة من الشعر الذهبي المحيطة برأسها الصغير فوق الوسادة ولم تكن تشكو أو تتذمر ألبتة. وإنما تقول وتكرر أننا جميعا نبدي نحوها طيبة متناهية، وأن زوجها العزيز يقتل نفسه من فرط العناية بها، وعمتي تضحي بساعات نومها كلها من أجلها.. وتستقبل التعسة فرحة عصافير الكناري الصغيرة التي تقتنيها. وتتحدث معها عن يوم زواجنا وغيره من الأيام السعيدة التي انقضت. ويأتي قسيسنا الورع مرارا ليزورها، فتفتح له روحها وقلبها على السواء، وأخيرا.. يأتي اليوم الذي لا تعود فيه حبيبتي المسكينة تغادر فراشها.

وتتضح لي الحقيقة القاسية: إن الأمر لم يعد غير أمر وقت، وربما ساعات معدودات.

وتناديني وهي ترفع نحوي عينيها الزرقاوين الواسعتين:

– داف.. أريد رؤية آجنس

– حسنا يا حبيبتي! سأكتب إليها كي تحضر.

– أوه، ما أطيبك.. وسوف تأتي سريعا، أليس كذلك؟

– أنا واثق من ذلك.. لا يقتضي الأمر أكثر من أطلب إليها الحضور وتغمغم هامسة في أذني:

– إنك تشعر بالوحدة الآن، أليس كذلك، حين تكون في الطابق الأسفل؟

– وكيف لا أكون، حين أرى مقعد زوجتي الصغيرة العزيزة خاليا؟

– حقا، هل تحس بوحشة من جراء بعدك عن المخلوقة الصغيرة الحمقاء، التي هي أنا؟

– وأي إنسان يستطيع أن يشعرني بالوحشة أكثر منك؟

فهتفت وهي تضحك وتبكي في آن واحد:

– أواه يا زوجي العزيز!. لكم أنا سعيدة، وفي الوقت عينه غاضبة!. لم يبق لي ما أتمناه!

– غير أن تشفى، أليس كذلك؟

– آه، داف. إنني أقول لنفسي – وأنت تعلم كم أنا حمقاء! – إنني لن أشفى قط!

– هل لك ألا تقولي شيئا من ذلك، والأهم من ذلك ألا تتوهميه؟

– سأحاول!. لكني على أي حال سعيدة جدا بأنك، يا فتاي المحبوب، تحس بالوحدة والوحشة وأنت جالس وحدك أمام مقعد زوجتك الخالي!

* * *

ووصلت آجنس في الصباح. وقضت معنا اليوم كله. وكانت دورا تزداد ضعفا ساعة بعد ساعة، وفي المساء كانت آجنس قد هبطت إلى الطابق الأول لبرهة قصيرة، طلبت دورا أن تتحدث إليها على انفراد. ثم قالت:

– لقد أذقتني السعادة القصوى، لكنني كنت أصغر سنا من أن أمنحك سعادة العمر كله.. فإنه من الخير أن ننظر إلى الأشياء كما هي، ونعترف بالأمر

الواقع فقلت لها وأنا عاجز عن احتجاز دموعي: "لا تقولي ذلك"

فقاطعتني وهي تعانقني: "لا تبك اذهب إلى جوار مقعدي، في الطابق الأول، واجعل آجنس تصعد إليَ بسرعة"

فنزلت، وجلست إلى جوار المدفأة، مستغرقا في أفكاري حتى أيقظتني من شرودي حركة من الكلب جيب على الباب، نبهتني إلى الحقيقة المرة. إنه يبغي أن يصعد إليها، وهتفت به:

– "كلا . ليس اليوم يا جيب. ليس اليوم" فعاد نحوي يهز ذنبه في حسرة، ويمد إليَ يديه ويرفع عينيه، متوسلا، وعدت أصيح به:

– "كلا يا جيب . لم يعد هذا ممكنا.. أبدا"

ورقد عند قدمي، تمدد كما لو كان سينام. وفي صرخة واحدة قصيرة شاكية، لفظ نفسه الأخير، وسمعت وقع خطوات تهبط السلم. وكانت آجنس هي القادمة، فهتفت في جزع وأنا أشير إلى جثة جيب: انظري. لقد ذهب شهيد الوفاء "

ولم تجب هي بشئ. ورفعت إليها عيني، فإذا هي أمامي مضطربة القسمات.. وبحركة لا شعورية أشارت إلى السماء، وقد انطبعت على وجهها آيات شجى مروع وإشفاق هائل، أدركت معناهما:

– أواه يا آجنس.

لقد انتهى كل شئ. وحجبت الظلمات بصري وقلبي. وفقدت كل وعي بما يدور حولي.

الفصل الثاني عشر

لست أدري كم من الوقت بقيت غائبا عن وعيي بعد موت زوجتي الحبيبة لابد أنني لم أعد إلى الحياة إلا بعد انقضاء فترة طويلة، وبدا المستقبل كأنما أغلق في وجهي إلى الأبد. وحيل لي أنني فقدت كل نشاطي وحيويتي. وصار الموت في نظري هو الخير الوحيد الذي بقي على الأرض.

ومن حسن حظي أن معتقداتي الدينية لم تلبث أن خفت إلى نجدتي، فوجدت في الصلاة والإيمان كل شجاعتي المفقودة، أو على الأقل وجدت فيهما راحة الاستسلام وسكينة الاذعان!

ونصح لي كل أحبائي بالسفر والترحال فترة من الزمن. لكني لم أستطع أن أنتهي إلى قرار في هذا الشأن قبل أن أعرف مصير ما سماه مستر ميكاوبر: السحق النهائي ليوريا هيب. ثم قبل أن أودع المهاجرين إلى القارة البعيدة، وفي أثناء ذلك، علمت من ترادل أن رأس المال الذي كانت عمتي قد عهدت به إلى مستر ويكفيلد لاستثماره سيرد إليها كاملا، فبعث في نفسي الاطمئنان على مصيرها، وفكرت في أن أسافر إلى يارموث لكي أرى هام وفيما أنا كذلك فوجئت بحضور مستر بيجوتي لزيارتي. وقال لي الصياد الكهل:

– مستر دافي. لقد سلمت خطابك إلى إميلي. فأعطتني ردا عليه هذا الخطاب، راجية أن تقرأه، ثم ترسله إلى صاحبه، إذا لم تجد فيه ما يضيرك..

وقرأت الخطاب، فإذا "إميلي" قد ضمنته كل شكرها وحبها لذاك الذي سببت له عذابا وآلاما قاسية. وطلبت إليه أن يغفر لها، كما غفر الله لها فيما تعتقد. وبعد أن ودعته وداعا نهائيا على هذه الأرض ضربت له موعدا في العالم الآخر وسألني البحار الشجاع، حين فرغت من قراءة الخطاب:

– هل تريد أن تضطلع بهذه المهمة يا مستر دافي؟

فأجبته بلهجة الحازم: "نعم. لا شك في ذلك. وأرى أنه ينبغي لي أن أسافر فورا لأسلم الخطاب إلى صاحبه، كيما أعود إلى هنا قبل رحيل سفينتكم. ولسوف يكون عزاء لكليهما أن يعلم أن خطابه قد سلم إلى الآخر. وإني لأحس الآن من الرغبة عن النوم ما يغريني أن أسافر هذه الليلة"

ورافقني مستر "بيجوتي" إلى عربة السفر. وحين تحركت العربة بنا لاحظت أن غيوما مخيفة تزحف بسرعة نحو كبد السماء!. فسألت الحوذي في شئ من القلق:

– ما رأيك فيها؟. إني لم أر لها مثيلا من قبل.

فأجابني الحوذي: "سوف تحدث كارثة في البحر هذه الليلة".

والواقع أن الريح لم تكف عن الصغير طيلة ذلك النهار، بينما كانت الظلمة تزداد كثافة لحظة بعد أخرى، بحيث لم يعد الحوذي يرى الطريق إلا بصعوبة في ضوء مصابيح العربة المترنحة. ثم أخذ المطر ينهمر مدرارا، حتى اضطررنا إلى التوقف مرارا لإيواء الجياد في حمى الأشجار الضخمة وعند مطلع الفجر لم نكن قد وصلنا إلى أبعد من

إبسفتش. في حين بدت العاصفة تنذر بالتفاقم. وكلما اقتربنا من البحر كانت الريح تزأر بعنف بل إننا قبل أن نصل إلى الخليج بمسافة غير قصيرة سمعنا هدير الأمواج الهائجة واصطخابها وارتطامها بالصخور.

كان البحر قد غزا قسما من السهل حول يارموث. حتى لقد اعتبر الأهالي وصول العربة إلى غايتها عملا ينطوي على البطولة. وكان أول ما فعلت بعد وصولي أن حجزت لنفسي حجرة في الحانة العتيقة، ثم يممت شطر الشاطئ. وهناك طالعني مشهد مخيف: كانت جبال من الماء ترتفع ثم تهبط وتفتت، حتى لقد بدا البحر وكأنه مشوق إلى أن يبتلع القرية بأسرها. وكان بعض الصيادين يطلون من أبوابهم بعيون قلقة، يحرصون على إخفاء نظراتها على النساء والأطفال، الذين هدهم الفزع والجزع على مصير عائليهم المساكين، الذين خرجوا للصيد، وحالت العاصفة العاتية دون رجوعهم حتى ذلك الحين.

ولم يكن هام بين تلك الجموع، فتوجهت إلى المنزل الذي يقطنه. لكني لم أجده هناك. فمضيت بقلب مثقل إلى حوض بناء السفن الذي يعمل فيه، وهناك علمت أنه لا ينتظر عودته للعمل قبل صباح اليوم التالي. وإذ ذاك عدت إلى الحانة، ولما كان الجو مازال ملبدا بالغيوم فقد لجأت إلى حجرتي، حاولت أن أنام، ولكن محاولاتي ذهبت عبثا. فإن قلقا أخرس قبض قلبي، وفي نحو الساعة الثامنة، أو التاسعة، لا أدري، أوقظت على صوت طرقات على بابي. فصحت وأنا أفرك عيني: "من هناك؟"

– حادث غرق بالقرب من هنا.

وفي مثل لمح البصر وثبت من الفراش وارتديت ثيابي، ثم هرعت إلى المطبخ أطلب بعض الإيضاحات. فعلمت أن هناك سفينة إسبانية أو برتغالية محملة بالفواكه والنبيذ في حالة ميئوس منها، بحيث ينتظر بين لحظة وأخرى أن ترى وقد تحطمت على صخور الخليج.

وعدوت مع الجماهير لكني لم أر غير جبال من الأمواج العاتية تتلاحق في أثر بعضها بعضا، ثم تتحطم على الشاطئ، فيحدث ارتطامها ضجيجا مروعا، ويتناثر زبدها كالحبب، وفي وسط الاضطراب البالغ الذي ساد النظارة المتزاحمين، رأيت إلى جانبي بحارا نصف عار يشير بذراعه المتجردة التي رسم عليها سهم كبير بطريقة الوشم، إلى ناحية اليسار ونظرت إلى حيث أشار، وعندئذ رأيت السفينة المسكينة بالقرب منا.

كان أحد صواريها مكسورا، على ارتفاع ست أقدام أو أكثر من السطح، وقد مالت على جانبها كصريع بضربة قاضية في ميدان القتال. وكانت السفينة نفسها تهتز، والأمواج تتقاذفها في عنف مروع، والصاري يصطدم بها مع كل هزة صدمة شديدة، يزيد الحالة خطورة. وقد بذلت محاولات عديدة لفصل هذا الجسم المكسور عن الحطام الباقي وإلقائه بعيدا، فإني حين اقتربت السفينة منا تحت ضغط الأمواج والرياح، لمحت ركابها يعملون فيها معاولهم، وكان أنشطهم في هذا الصدد شاب ذو شعر مجعد طويل.

وفجأة سُمعت صرخة مروعة منبعثة من الشاطئ، طغت حتى على

صوت الأمواج ودوي الرياح. فقد سقطت السفينة في دوامة من الزبد أخفتها عن الأنظار. وحين ظهرت لم يكن باقيا على ظهرها من ركابها غير أربعة تعلقوا في غمرة اليأس بالصاري الوحيد الباقي. أما الباقون فقد طرحتهم السفينة عنها بأمتعتهم في اليم.

ورأيت الشاب ذا الشعر المجعد وقد أمسك بيده سلسلة الجرس الكبير وراح يشدها بكل قوته بعزم جبار. ثم علت من الجماهير صرخة أخرى حين سقطت السفينة مرة ثانية في الدوامة، وعندما ظهرت من جديد كان اثنان من ركابها الأربعة الباقين قد اختفيا بدورهما في أعماق البحر.

واستولى على الجموع المزدحمة على الشاطئ قلق رهيب، فرفع الرجال منهم أذرعهم نحو السماء وهم يطلقون صيحات الاشفاق. وارتعدت النسوة جزعا من هول المصاب وانهمرت الدموع من أعينهن. وسمعت أصواتا تتحدث عن إسعاف الراكبين الباقين على قيد الحياة، إذا أمكن ذلك. واتجهت أنا صوب جماعة من البحارة ورحت أناشدهم ألا يتخلوا عن البحارين التعسين المستهدفين للخطر في محنتهما البشعة. فأجابوني قائلين: "لقد حاولنا الكثير منذ ساعة، ولكننا لم نستطع أن ننزل إلى البحر أية سفينة لنجدة السفينة الغارقة".. والواقع أن شدة العاصفة جعلت ثبات سفينة الانقاذ على الماء ضربا من المستحيل. كان لابد من ربطها إلى الشاطئ بحبل متين، ولكن أي رجل يبلغ به الجنون أن يقذف بنفسه إلى البحر إبان عاصفة كهذه؟ وفي تلك اللحظة رأيت حركة بين الجموع، كما لو كان القوم ينتظمون صفوفا كي يسمحوا لقادم

جديد بالمرور وظهر هام ولمحت على سيماه آية العزم والجرأة، وفي نظرته التي ألقاها على البحر طابع التصميم والشجاعة، ففكرت في الخطر الذي سيعرض نفسه له، وتوقعت شرا. فما كان مني إلا أن تصديت له بذراعي، ورجوت البحارة الذين حولي ألا يدعوه يذهب، فإن ذلك يكون بمثابة انتحار متعمد أو محاولة للوصول إلى المستحيل. ولكن صرخة أخرى شقت الفضاء في تلك اللحظة. فإن بقية الشراع التي كانت تخفق في أعلى الصاري لطمت بشدة أحد الرجلين الباقيين على ظهر السفينة وألقته في البحر.. فلم يبق على الحطام المتأرجح غير البحار التعس ذي الشعر المجعد وقال لي هام بلهجة من استقر عزمه على شئ وهو يمسك بكلتا يدي:

– مستر دافيد.. إذا كانت ساعتي قد حانت فليس منها مفر، وإلا فإنني سأنجو.. فليباركك الله، أنت وهم جميعا.. هيا أيها الرفاق، ساعدوني، يجب أن أصل إلى هناك.

ودفعني برفق، ولم يلبث أن اختفي وسط جموع المتزاحمين الذين حملني تيارهم بدوري مسافة ما، إلى حيث ثبط المحيطون بي عزمي على التدخل قائلين: "إنه سيقدم على مغامرته سواء لقي تشجيعا أو معارضة، وإنك إنما تضاعف الخطر الذي يحيق به ببلبلة أفكار من في يدهم إعداد بعض الاحتياطات لحمايته".. لست أذكر بماذا أجبت، ولا ماذا كان ردهم، حتى رأيت هرجا وموجا على الشاطئ ورجالا يعدون حاملين بعض الحبال، ثم يخترقون دائرة الأشخاص الذين كانوا يحجبونه عن نظري. ثم رأيته واقفا

وحده في لباس بحار، وفي يده حبل، وحول جسمه آخر. وبضعة من خيرة الرجال يمسكون بطرفي الحبلين، وأدركت، رغم عدم خبرتي أن السفينة المحطمة تقترب من نهايتها المحتومة، وأن حياة الرجل الوحيد الذي على ظهرها معلقة بخيط واه. وبرغم ذلك بقي على ظهرها، متشبثا بالصاري. وكان يرتدي قبعة حمراء فريدة في نوعها، ليست مثل قبعات البحارة. وحين تطايرت بضعة الألواح التي تفصل بينه وبين الهلاك، ودق ناقوس موته، رأيناه جميعا يلوح لنا.. وكدت أصعق حين بعثت حركته في نفسي ذكرى قديمة لشخص كان يوما ما صديقا حميما لي أما هام فوقف برهة يرقب البحر، وخلفه سكون الأنفاس المحبوسة، وأمامه العاصفة المزمجرة. حتى رأى موجة صخمة تراجعت وانحسرت فاعتزم انتهاز الفرصة بغير ابطاء، نظر إلى الرجال الأشداء الذين يمسكون بأطراف الحبال نظرة تنبيه، ثم اندفع صوب الماء.. وبعد لحظة كان يصارع الأمواج فيتسلق تلالها ويهبط وديانها ويضيع تحت غمرة زبدها ثم يجذب إلى القاع بشدة.

ولمحت من مكاني الذم على وجهه، فأدركت أنه جرح. لكنه لم يعبأ بل أشار إلى الرجال كي يرخوا له الحبل ليعطوه مزيدا من الحرية في الحركة، أو هكذا فهمت أنا على الأقل من تلويحه بذراعه واتجه صوب السفينة الغارقة، يصارع الأمواج. فيتسلق تلالها، ويهبط وديانها، ويضيع تحت غمرة زبدها ثم يجذب إلى الشاطئ آنا، وإلى السفينة آنا آخر. لم تكن المسافة بينه وبينها هي العقبة، وإنما كانت العقبة قوة البحر والريح، التي جعلت النضال مميتا.

وأخيرا اقترب من الحطام العائم. صار قريبا منه إلى حد أنه كان خليقا بضربة ذراع واحدة من ضرباته الصائبة أن يتعلق به. لولا أن جبلا عاليا أخضر من الماء أقبل من وراء السفينة مندفعا نحو الشاطئ، فبدا كأن الفتى قد قفز إلى باطنه بجرأة خارقة.. وحين ظهر ثانية كان الحطام قد اختفى في بطن الماء.

وعدوت مع الجموع التي تملكها الانزعاج، إلى حيث كان الموج يلقي بحطام السفينة إلى الشاطئ وكان هام ضمن ما ألقى البحر، فحملوه إلى ما بين قدمي، جثة هامدة ثم نقلوه إلى أقرب بيت، ولما لم يعد أحد يجرؤ على الحيلولة بيني وبينه، فقد جلست إلى جواره. بينما كانت تجرب فيه كل وسائل الإسعاف المستطاعة.. ولكن بلا جدوى، إن الموجة الأخيرة العاتية قد قتلته، وقلبه النبيل قد سكن إلى الأبد..

وفيما أنا جالس إلى جوار فراشه، حين تبخر كل أمل وفشل كل إسعاف، سمعت شخصا يهمس باسمي من خارج الباب. كان الهامس بحارا يعرفني منذ كنت و إميلي طفلين صغيرين، ولم تنقطع معرفته بي منذ ذلك التاريخ. قال والدموع تنهمر على وجهه، وشفتاه الشاحبتان ترتجفان:

– سيدي. هل لك أن تخرج لحظة؟

وكنت من الإعياء بحيث احتجت إلى أن أمشي مستندا إلى ذراعه.. وسألته وقد خطف الرعب قلبي، كأنما هتف بي هاتف خفي إن شرا آخر رهيبا قد وقع:

– هل قذفت الأمواج بجثة أخرى إلى الشاطئ؟

– نعم.

– وهل أعرف صاحبها؟

ولم يجب البحار العجوز، وإنما قادني إلى الشاطئ. وفي تلك البقعة التي طالما لهونا فيها إميلي وأنا في طفولتنا، باحثين عن القواقع والأصداف. البقعة التي كان زورق مستر بيجوتي القديم رأسيا فيها، قبل أن تحطمه زوبعة الليلة السابقة وتنثره بدوره حطاما. في تلك البقعة بعينها رأيته راقدا ورأسه على ذراعه، كما طالما رأيته ينام ونحن في المدرسة.

* * *

لهفي عليك يا ستيرفورث لم تكن بك حاجة إلى أن تقول لي في آخر مرة التقينا فيها: "لا تسئ بي الظن". فما أسأته بك قط. وهل في وسعي أن أفعل الآن وأنا أمام جثمانك؟

أحضر القوم محفة وضعوه عليها، وغطوه بعلم، ثم حملوه إلى داخل القرية. وكان جميع الذين حملوه قد عرفوه، وخاضوا البحر معه، ورأوه مرحا جسورا. أما الآن فقد ساروا به وسط الهدير الوحشي، صامتا بين أمواج صاخبة، متجهين إلى الكوخ الذي به جثمان.. هام، وحين أنزلوا المحفة فوق العتبة نظر بعضهم إلى بعض ثم إلي وتهامسوا. وأدركت السبب لقد شعروا بأنه ليس من اللائق أن يضعوه مع الآخر في غرفة واحدة..

وذهبنا إلى المدينة، وأخذنا حملنا إلى الحانة.. وما كدت أستطيع جمع شتات أفكاري حتى أرسلت في طلب عربة تقل الجثة إلى لندن ليلا، وكنت أعلم أن مهمة رعايتها وإعداد الأم المكلومة لاستقبالها تقع على عاتقي وحدي، وحينما قابلتني السيدة ستير فورث في منزلها، رمقتني المرأة بنظرة ثابتة، ورفعت يدها إلى جبينها. فرجوت منها أن تحتفظ بهدوئها، وأن تعد نفسها لأن تحتمل ما سأقوله لها. لكنها جمدت في مكانها، حتى وددت لو ناشدتها أن تبكي بدلا من أن تهدأ.

وقلت مترددا: "عندما كنت هنا في المرة الأخرى قالت لي الآنسة دارتل: إنه يطوف بالبحار هنا وهناك. وقد كانت الليلة قبل الماضية ليلة رهيبة في البحر. فلو كان في عرض البحر في تلك الليلة، وبالقرب من شاطئ خطر – كما قيل إنه كان بالفعل – ثم لو كانت السفينة التي شوهدت هي بعينها السفينة التي.." وهنا قالت السيدة ستيرفورث:

– روزا.. تعالي هنا.

فاقتربت منها، في غير رفق ولا عطف. ولمعت عيناها بشعاع كالنار وهي تواجه أمه. ثم انفجرت ضاحكة ضحكة رهيبة وقالت مخاطبة الكهلة المكلومة:

– الآن، هل أشبع كبرياؤك، أيتها المجنونة؟ هل كفر لك عن ذنبه، بحياته؟ أتسمعين: بحياته؟

وسقطت السيدة ستيرفورث في مقعدها إلى الوراء متصلبة

الأطراف. وسلطت على الفتاة نظرة محملقة، دون أن تطلق غير حشرجة مختنقة، فصاحت "روزا" وهي تدق على صدرها في انفعال:

– آه انظري إليَ. وحشرجي وتمتمي وحملقي فيَ ثم ضربت بيدها موضع الندبة التي في وجهها، التي أحدثها بها ستير فورث وأردفت في وحشية:

– انظري هنا. إلى صنع ولدك الميت وكانت الحشرجة التي تطلقها الأم بين لحظة وأخرى تطعن قلبي، وهي تصحبها بهزة عاجلة من رأسها، وقد انفرج فمها وانطبقت أسنانها كأنما الفك قد أغلق والوجه قد تجمد على قالب لا يتبدل، قالب الألم المروع! واستطردت الفتاة كالشامتة:

– أتذكرين متى فعل ذلك؟ أتذكرين متى شوهني مدى الحياة، وقد ورث عنك طبيعتك المتحجرة وكبرياءك، وعدم مبالاتك بآلام الآخرين؟. انظري إلي وقد وصمني حتى أموت بهذه الوصمة البشعة ثم حشرجي وتمتمي ونوحي من أجل النشأة التي نشأته عليها.

عندئذ ناشدتها قائلا:

– آنسة دارتل. بحق السماء.

فقالت وهي تستدير نحوي بعينيها المتقدتين بالشرر:

– لن أصمت. بل فلتصمت أنت..

وعادت تخاطب الأم الثكلى، فلم أطق صبرا، وهتفت بالفتاة الشامتة:

– آنسة دارتل سحقا لقسوتك لكنها أجابتني في إصرار: "دعني أخاطبها. ما من قوة على الأرض تستطيع أن تمنعني. لقد لذت بالصمت طيلة هذه السنين، فهل يحرم علي أن أتكلم الآن؟"

ثم استدارت نحوها وصاحت في ضراوة:

– لقد أحببته أكثر مما أحببته أنت. وقد كان في وسعي أن أحبه ولا أطالبه بمقابل لحبي.. لو كنت تزوجته لغدوت جارية ذليلة لنزواته في مقابل كلمة حب واحدة كل عام. كان حبي خليقا بأن يكون تفانيا لكنك كنت متعجرفة، طامعة، أنانية.

ودقت الأرض بقدمها وقد اتقدت عيناها شررا، كما لو كانت تطأ شيئا تحت قدميها. ثم عادت تلطم موضع الندبة التي في وجهها مرة أخرى بيد لا تعرف الرحمة، وطيلة ذلك الوقت، ظلت العجوز صورة جامدة لا يتغير من تعبير وجهها شئ؟. ظلت خرساء صماء بلا حراك. فيما عدا حشرجتها الخافتة الواهنة التي تنطلق بين الحين والحين، مصحوبة بتلك الهزة الخفيفة اليائسة من الرأس. ولولا ذلك لما حسب الناظر إليها أنها مازالت على قيد الحياة.

وفجأة، جثت الآنسة دارتل على ركبتيها أمامها، وبدأت تحل أزرار ثوبها.. ثم نظرت إليَ، نظرة هي مزيج من الغضب والحزن، وصاحت بي:

– لعنة الله عليك. لقد كانت ساعة مشئومة ساعة إن وطأت بقدميك عتبة هذا البيت..

ولم أكد أخرج من الحجرة حتى هرعت عائدا إليها كي أدق الجرس لاستدعاء الخدم. فقد رأيت الفتاة تأخذ العجوز الجامدة بين ذراعها وهي تبكي وتنوح، وتقبلها، وتناجيها وتهزها لصق صدرها كما يهدهد الطفل، ومحاولة بكل وسيلة رقيقة أن توقظ الحواس الهاجعة ولما لم أعد أخشى عليها من غريمتها، انسحبت من الغرفة في سكون، وفي طريقي إلى الباب الخارجي نبهت كل من صادفته إلى ما وقع.

وعدت بعد ساعات، ومعي جثمان الابن فوضعناه في حجرة أمه. وقيل لي أنها ما تزال على حالها، في غيبوبة تامة، لا يصدر منها غير تلك الحشرجة، أو ذلك الأنين الخافت، رغم كل ما بذله الأطباء من أجلها ورحت أجول في أرجاء المنزل الموحش، أغلق النوافذ المفتوحة وكانت نوافذ الحجرة التي رقد فيها آخر ما أغلقت؟. ثم انحنيت على يده فرفعتها إلى قلبي، وبدا لي العام كله موتا وسكونا، لا يتخللهما غير أنين الأم المكلومة.

الفصل الثالث عشر

غادرت انجلترا آملا أن يعينني تغيير الأجواء والمناظر على أن أعيد بناء حياتي جديد.. وكثيرا ما يحدث أن يصاب المحارب في ميدان القتال إصابة مميتة، من غير أن يشعر بأنه جرح، إلا بعد أن يسكن ضجيج الحديد والنار.. وهكذا لم أقدر حين رحلت –وحيدا– مدى عمق الجرح الذي ينبغي أن أتعهده بالعلاج والدواء. وكل ما شعرت به وقتئذ لم يكن أكثر من شعور غامض بالوحشة، والأسى، وشيئا فشيئا، بدأ ذهني المكدود يزداد إدراكا لكل الكنوز الثمينة التي فقدتها: الحب. والصداقة. والمصلحة. ومن جميع القصور الجميلة التي بنيتها لمستقبلي في الخيال، لم يبق حولي غير حطام وأنقاض.

وكان اليأس يستولى عليّ في بعض اللحظات إلى درجة أشعر معها أنني أعاني سكرات الموت، ولا أعود أتمنى غير أن تتاح لي العودة إلى موطني وبيتي، كي ألفظ هناك أنفاسي الأخيرة لكني في أحيان أخرى، كنت أتنقل على العكس من مدينة إلى أخرى، ساعيا على الدوام إلى كل جديد، محاولا جهدي نسيان ما خلفته وراء ظهري، وعلى هذه الصورة، ذرعت أرجاء إيطاليا ووصلت إلى سويسرا.

وذات ليلة، عند الغروب، حللت أحد الوديان الزاهرة فأخذت على حين غرة وعلى صورة لم أعهدها من قبل بجمال المنظر وجلال الطبيعة التي تحيط بي. وأحسست بنفسي وقد غمرتها سكينة عذبة عجيبة لم أنعم

بها في ماضي حياتي يوما. خيل إلي أن روحي قد تخففت بغتة من الأثقال التي كانت تزهقها، ونهضت كي تتقبل نعمة إلهية هبطت إليها من السماء وعندئذ، و للمرة الأولى منذ وفاة دورا بكيت كما لم أبك من قبل. وركعت على ركبتي أرفع صلاتي إلى ربي..

وكنت قد نسيت في جيبي خطابا تسلمته في الفندق وأودعته حافظتي حتى تتاح لي فرصة لقراءته وفضضته. فإذا هو من آجنس وتحققت معجزة النعمة الإلهية: إن الله قد أنقذني بأجمل شيئين خلقهما: الصداقة والطبيعة عندئذ فقط أدركت ما كان يمكن أن تكون عليه حياتي، لو لم تضلني حيرتي وترددي فتعميني عن اختيار آجنس زوجة لي، ولو أنني فعلت.. لوجدت فيها حقا نعم الرفيقة المثالية، التي هي مزيج من العذوبة والقوة.. من المحمية والحامية.. من الروح والجسد. وبكيت مرة أخرى أسفا. لكني في هذه المرة لم أفكر إلا في آجنس، وكانت قد انقضت على رحيل المهاجرين إلى استراليا أعوام ثلاثة، حين أخذت السفينة ذاتها في الساعة ذاتها، كي أعود إلى وطني كم أسعدني أن أعود إلى بيتي، وإلى آجنس أيضا.. إلى تلك التي كان يمكن أن تكون زوجتي، والتي لن تصبح كذلك يوما ما، بلا شك، وكان عيد الميلاد قد اقترب. واستقرت عمتي مرة أخرى في بيتها القديم في دوفر. ولم يبق لي صديق في لندن أسعى إليه غير ترادل. فتوجهت صوب مسكنه، وأنا أعد نفسي مقدما للمفاجأة السارة التي سوف يستهدف لها حين حين يراني، لكن المفاجأة كانت من نصيبي أنا. فإني وجدت ترادل قد نزوج، وبيته يعج

بعصابة من الفتيات الجميلات، شقيقات زوجته، وكل واحدة منهن تفوق أختها حسنا ونضارة. وسرني أن أتعرف إلى صوفي في بيتها، وردة مرحة ودودة مخلصة فقبلتها مهنئا، باعتبارها صديقة قديمة، وأنا أعبر لها عن أطيب تمنياتي لها بالسعادة الوافرة. وهي تمنيات شعرت بأنها قد تحققت واستجيبت قبل أن أطلبها.

وأفاء جو البيت المرح عليَ سكينة نفسية، وراحة غامرة، بحيث لم أكد أعود إلى بيتي حتى كففت عن أن أنظر إلى الماضي نظرة تنطوي على المرارة. بل بدأت أفكر أيضا في المستقبل فمن يدري ما يخبئه لي في طياته؟ ومضيت كي أحجز لي مكانا في العربة المسافرة إلى دوفر وقد أحسست كأن قلبي غدا طائرا منشور الجناح وحين وصلت استقبلتني عمتي، ومربيتي العجوز بيجوتي. ومستر ديك بأذرع مرحبة وعيون دامعة من شدة الفرح وحين تركنا على انفراد – عمتي وأنا – جلسنا بجانب المدفأة نصطلي ونتحدث، إلى ساعة متأخرة من الليل.. عن المهاجرين وكيف كانت خطاباتهم جميعا تفيض بشرا وهنا. وعن جانيت خادمة عمتي القديمة وكيف عادت إلى خدمتها منذ استقرارها من جديد في دوفر.. ثم انتهى بها الأمر إلى الزواج من صاحب حانة. وعن مستر ديك وكيف يشغل أوقاته بنسخ كل ما يقع تحت يده ثم قالت لي عمتي وهي تربت ظهر يدي:

– متى ستذهب إلى "كانتربري" يا "تروت"؟

– سوف أحصل على جواد وأمضي إلى هناك صباح غد إلا إذا ذهبت أنت معي؟

– كلا.. بل سأظل حيث أنا.

– إذن فسوف أذهب بالجواد.

وصمتنا برهة، شردت فيها أفكاري إلى آجنس. فما كان يمكن أن أصير قريبا منها إلى هذا الح، ولا أفكر فيها، مستعيدا في نفسي مشاعر الأسف التي طالما هدهدتها في صدري بصددها. وفجأة خيل لي كأني أسمع صوت عمتي يهتف بي مرة أخرى:

– أوه يا تروت. إنك أعمى، أعمى.

وحين رفعت بصري بعد فترة الصمت، رأيت عمتي ترقبني خلسة بعينيها، وكأنما كانت تتابع تيار أفكاري وما لبثت أن قالت لي:

– سوف تجد أباها شيخا أشيب الشعر، وإن يكن قد تقدم في جميع نواحي حياته الأخرى تقدما محمودا ثم سكتت عمتي لحظة، واستطردت:

– وستجدها كالعهد بها: طيبة، جميلة جادة، مضحية. ولو عرفت مديحا أفضل من هذا لقلته فيها!

وما كان في الإمكان أن تمتدحها عمتي، وتوبخني أنا، بأبلغ من هذا الكلام كيف ضللت السبيل إلى هذا الحد؟ وعادت عمتي تقول، وقد كان دمع التأثر يطفر من عينيها:

– ولو عكفت على تدريب الفتيات اللواتي يعشن في محيطاكي ينشأن مثلها. فإنها لا تكون قد ضيعت حياتها سدى، ولصارت نافعة

وسعيدة، كما قالت لي ذلك اليوم. وكيف يمكن لمثلها إلا أن تكون نافعة وسعيدة؟

وقلت في صوت أقرب إلى التفكير المسموع منه إلى الكلام:

- هل لم تتخذ آجنس..

فقاطعتني عمتي في حدة: "تتخذ ماذا؟"

- تتخذ لها.. حبيبا؟

فصاحت عمتي في شئ من الأنفة:- إنها كانت تستطيع أن تجد عشرين فرصة للزواج، منذ رحلت أنت.

- لست أشك في ذلك. ألبتة!.. ولكن هل بين هؤلاء الذين يحومون حولها من هو جدير بها حقا؟.. فإني أعلم أن آجنس لا يمكن أن تحب شخصا غير جدير بها! وعند ذاك جلست عمتي ساهمة برهة، وقد اعتمدت ذقنها بيدها. ثم رفعت عينيها إلي ببطء وقالت:

- إني أرتاب في أنها على صلة بشخص ما!

- أهو شخص موسر؟

- لا أستطيع أن أجيبك يا تروت. ليس من حقي ذلك، فإنها لم تبح لي بشئ، وإنما أنا أرتاب فقط!

ونظرت إلي بانتباه يشوبه القلق -حتى لقد لمحتها ترتجف- بحيث شعرت بأنها كانت تتابع أفكاري في الاتجاه الصحيح. فقلت لها:

– إذا كان الأمر كذلك. وأرجو أن يكون..

– لست أعلم إذا كان ارتيابي صحيحا أم لا. على أي حال ينبغي ألا تنقاد وراء ظنوني، وأن تحتفظ بها لنفسك، فإنها شكوك طفيفة. وليس من حقي أن أتكلم!

– إذا كان الأمر كذلك، فسوف تصارحني آجنس نفسها في الوقت المناسب. فإن الأخت الصديقة التي صارحتها بأموري الخاصة لن تضمن علي بأمورها هي.!

وحولت عمتي عينيها عني في بطء، ثم غطتهما بيدها، وبعد حين وضعت يدها الأخرى على كتفي. وهكذا جلسنا كلانا ننبش الماضي بأفكارنا، من غير أن ننبس بكلمة أخرى، حتى مضى كل منا ليلتئذ إلى فراشه وفي الصباح، ركبت جوادي قاصدا موطن صباي. ولا أستطيع القول أني كنت سعيدا، حتى وأنا أمني نفسي بأن عيني لن تلبثا أن تكتحلا برؤية وجهها بعد زمن وجيز.

وعبرت الطرقات القديمة المألوف، ووصلت إلى شوارع المدينة الهادئة، التي كنت أعرف كل حجر منها.

فمضيت على قدمي إلى المنزل القديم، بقلب ملئ يعوقني عن الدخول. ثم رحت أذرع الرصيف المجاور وأنا أطل أثناء سيري على النافذة المنخفضة لحجرة المكتب، حيث اعتاد أن يجلس في البداية يوريا هيب ثم مستر ميكاوبر.. فتبينت أنها لم تعد حجرة مكتب بل

حولت إلى غرفة للجلوس. وفيما عدا ذلك كان البيت العتيق على حاله من النظافة والنظام، مثلما رأيته في أول مرة.

وفتحت لي الباب خادمة، سألتها أن تنبئ الآنسة ويكفليد أن شخصا آتيا من قبل صديق في الخارج، يبغي مقابلتها.. فقادتني إلى السلم القديم، ومنه إلى حجرة الاستقبال، التي لم يتغير فيها شئ.. كانت الكتب التي قرأتها مع آجنس باقية على رفوفها. والمقعد الذي طالما جلست عليه أستذكر دروسي ما زال في ركنه المعهود. لكن جميع التغييرات الطفيفة التي أجريت أثناء مقام أسرة هيب في المنزل عادت إلى حالها القديم.. وفيما عدا ذلك كان كل شئ على حاله الأول في الأيام الخوالي السعيدة!

وقفت أمام نافذة أنظر عبر الشارع العتيق إلى المنازل المقابلة، مستعيدا الأمسيات الباردة التي وقفت فيها أرقبها في أول عهدي بالبيت.. وأفقت من تأملاتي على صوت باب الغرفة يفتح.. ثم التقت عيناي بعينيها الجميلتين الصافيتين وهي تتقدم نحوي ثم توقفت، ووضعت يدها على صدرها. وتلقيتها بين ذراعي:

– آجنس.. يا فتاتي العزيزة!. لقد فاجأتك!

– كلا، كلا. بل إني لفرحة بأن أراك يا تروتوود!

– عزيزتي آجنس.. إنما أنا السعيد برؤيتك مرة أخرى!

وضممتها إلى صدري، ولبثنا برهة صامتين. ثم جلسنا إلى جنب

ووجهها الملائكي متجه نحوي في ترحيب طالما حلمت به في يقظتي ومنامي طيلة سنوات كاملة..

لكم كانت صادقة، وجميلة، وطيبة، كنت مدينا لها بفيض من الشكران والعرفان بالجميل، وكانت عزيزة عليَ إلى درجة أني لم أستطع أن أجد متنفسا لما أشعر به!. حاولت أن أباركها، وحاولت أن أشكرها، وحاولت أن أفهمها – كما طالما فعلت في رسائلي إليها – مبلغ نفوذها وتأثيرها في نفسي. لكن جهودي كلها ذهبت أدراج الرياح وظل حبي وفرحي أخرسين!

وبهدوئها العذب هدأت من ثائرتي، وأعادتني إلى الوراء، إلى يوم افتراقنا. وحدثتني عن إميلي، التي زارتها في السر مرارا، وقالت لي كلاما رقيقا عن قبر دورا. وبغريزة قلبها النبيل، الغريزة التي لا تخطئ، لمست أوتار ذاكرتي بنعومة وتناسق بحيث لم يحدث واحد منها صوتا ناشزا. فأصغيت إلى الموسيقى البعيدة الحزينة وأنا مشفق من أن أفيق من تأثيرها.

ثم قلت لها: " وماذا عنك يا آجنس؟، إنك لم تقولي شيئا عن حياتك طيلة كل هذه الفترة من الزمن" فأجابت بابتسامتها المشرقة:

– ماذا أقول؟. أبي بخير. ونحن نعيش هنا في منزلنا عيشة هادئة، وقد زالت دواعي قلقنا ورد بيتنا إلينا. وبذلك تكون على علم بكل شئ يا عزيزي تروتوود.

– كل شئ حقا.. يا آجنس؟

فنظرت إليَ، بشئ من الدهشة على وجهها، بينما ألححت أنا في سؤالها:

– أما من شئ آخر؟

وكان لونها قد غاض، فعاد.. ثم غاض مرة أخرى. وابتسمت –في أسى هادئ– ثم هزت رأسها، وكنت أردت أن أستدرجها إلى الحديث عما أشارت إليه عمتي، برغم ما ينطوي عليها بوحها لي بأمر مثل ذلك من إيلام حاد لي، فقد كان إخلاصي يقتضيني أن أكضم عاطفتي وأقوم بواجبي نحوها. لكني حين رأيتها تضطرب تركت الموضوع يمر في سلام، وسألتها:

– "إنك مثقلة بواجبات مرهقة فيما أعتقد يا عزيزتي آجنس؟" فقالت وهي تنظر إلي بكل بريق حدقتيها:

– تعني واجبات تلاميذي ومدرستي؟

– نعم.. إنه عمل مضن، أليس كذلك؟

– لكن العمل شئ ممتع، إلى حد أني أعتبر من الجحود أن أطلق عليه هذا الاسم!

– الواقع أنه ما من شئ طيب يصعب عليك!

ومرة أخرى فاض لونها ثم غاض.. ومرة أخرى، وهي تحني رأسها،

رأيت الابتسامة الحزينة ذاتها. ثم قالت في مرح: "إنك ستنتظر كي ترى أبي، وتقضي اليوم معنا؟. وربما تنام في غرفتك بعينها. إننا دائما نسميها غرفتك.." .

لكني لم أستطع قبول دعوتها بشأن المبيت، بعد أن وعدت عمتي بالعودة إليها في مساء اليوم نفسه. أما الدعوة إلى قضاء النهار فقد قبلتها مرحبا وقالت آجنس، وهي تشير إلى أشياء في الحجرة:

– أترى الكتب القديمة يا تروتوود. وآلة الموسيقى؟

فأجبت وأنا أتأمل ما حولي:

– حتى الأزهار القديمة ما زالت في مكانها، أو بتعبير أصح: الأصناف القديمة من الأزهار فقالت وهي تبتسم:

– لقد وجدت متعة – أثناء غيابك – في الاحتفاظ بكل شئ كما كان. فقد كنا سعداء جدا يومئذ..

– يعلم الله كم كنا سعداء.

– إن كل شئ هنا يذكرني بأخي.. أخي الذي صار لي رفيقا مرغوبا فيه. حتى هذه. إنها تبدو كأنما تردد نغما قديما وأرتني السلة الصغيرة الملأى بالمفاتيح، معلقة إلى جانبها. ثم ابتسمت مرة أخرى واتجهت صوب الباب الذي أتت منه!

* * *

وكان على أن أرعى هذا الحب الأخوي الذي بيننا كما يرعى الناس الأشياء المقدسة.. فقد كان كل ما بقي لي كان بمثابة كنز، لو صدعت أساس الثقة المقدسة بشأن طريقة استعماله، وهي الثقة التي أعطى إلي اعتمادا عليها، لفقدته إلى غير رجعة!. هذا هو المبدأ الذي وضعته نصب عيني، وكلما أحببتها أكثر، اقتضاني هذا الحب ألا أنسى عهدي. وخرجت أمشي في الشوارع القريبة، فخيل إلي أن لا شئ قد بقي من أيام صبانا غير آجنس .. النجمة التي تزداد مع الزمن ضياء وإشراقا!

وحين عدت، كان مستر ويكفيلد قد عاد من الحديقة التي يملكها على بعد أميال خارج المدينة، والتي يقضي فيها بعض وقته كل يوم. وألفيته كما وصفته عمتي لي، مجرد ظل لصورته الأنيقة المعلقة على الحائط. وجلسنا نتغدى مع "نصف دستة" من البنات الصغيرات، وحين انتهى الغداء، ولم يكن مستر ويكفيلد – ولا أنا – قد شربنا خمرا، صعدنا إلى الطابق العلوي، حيث كانت آجنس وتلميذاتها الصغيرات يغنين ويلعبن ويعملن، وبعد تناول الشاي تركنا الأطفال، فجلسنا ثلاثتنا معا نتحدث عن الأيام الخوالي. وقال مستر ويكفيلد وهو يهز رأسه المشتعل شيبا:

– إن نصيبي منها فيه مادة كثيرة للأسف والندم العميق كما تعلم جيدا يا تروتوود.. ولكن لو كان في استطاعتي إلغاء تجاربي تلك لما فعلت ونظرت إليه غير مصدق، بينما استطرد هو موضحا:

– إني أفهم وجهة نظرك يا سيدي، وأحترمها.. بل لقد احترمتها في الماضي على الدوام!

فأجابني: "لكن أحدا لا يعلم مبلغ ما فعلت وما قاست وما ذاقت ابنتي العزيزة آجنس من أهوال" وكانت قد وضعت يدها على ذراعه في حركة مناشدة وتوسل، كي توقفه، وقد شحب وجهها شحوبا شديدا. فقال وهو يتنهد، كمن عدل عن سرد تجربة أليمة، تتعلق بما قالته لي عمتي:

– حسنا، حسنا..

ثم التفت إلي قائلا: "إني لم أحدثك يوما يا تروتوود عن أمها. فهل حدثك عنها أحد؟"

وإذ أجبت بالنفي، واصل كلامه فقال: "إنها ليست قصة طويلة، وإن كانت مؤلمة. لقد تزوجتني برغم إرادة أبيها، فنبذها، فتوسلت إليه أن يصفح عنها، قبل أن تجئ ابنتي إلى هذا العالم وكان هو رجلا قاسيا، ماتت زوجته منذ زمن. لكنه صدها أيضا، وحطم قلبها".

اتكأت آجنس على كتفه، وأحاطت عنقه بذراعها. بينما استطرد هو:

– كانت ذات قلب رقيق عطوف، لكنه تحطم. وبرغم أنها أحبتني حبا مكينا، لم تكن سعيدة يوما. وقد ظلت تعاني مرارة قطيعة أبيها التي حزت في نفسها حتى انهارت صحتها، فلما صدها وأبى الصفح عنها في محاولتها الأخيرة أصيبت بصدمة قضت عليها. وتركت لي آجنس طفلة في الأسبوع الثاني من عمرها، كما خلفت لي هذه الهالة من الشعر الأشيب التي عرفتني بها منذ رأيتني لأول مرة.

وقبل آجنس على وجنتيها. ثم أكمل قصته:

– كان حبي لطفلتي الغالية حبا مرضيا. لكن عقلي كله كان مريضا في تلك الآونة، هذا كل ما أستطيع أن أقول في هذا الشأن. ولقد طالما قرأت في خلق آجنس منذ طفولتها شيئا من مأساة أمها التعسة، التي سردتها عليك في إيجاز، الآن، وقد اجتمعنا ثلاثتنا مرة أخرى بعد كثير من الأحداث والتطورات الهامة في حياة هذا البيت "وصمت الشيخ، فقرأت بدوري في رأسه المحني، وفي وجه ابنته الملائكي معنى أشد تأثيرا في النفس، وأدعي إلى الرثاء من القصة نفسها..

وبعد قليل نهضت آجنس من جوار أبيها، واتجهت في رشاقة إلى البيانو، فعزفت عليه بعض الألحان القديمة التي طالما سمعتها في ذلك البيت، ثم انتهزت فرصة انفرادنا فسألتني:

– هل في نيتك أن تسافر مرة أخرى؟ – ماذا تقول أختي في ذلك؟

–أرجو ألا تفعل.

– إذن. فليس في نيتي شئ من ذلك ألبتة يا آجنس وإذ ذاك قالت جادة:

– ما دمت تسألني رأيي يا تروتوود، فأنا أعتقد أنك ينبغي ألا تفكر في السفر. فإن سمعتك النقية ونجاحك المتزايد يضاعفان من قدرتك على أن تؤسس لنفسك مستقبلا باهرا.

– إن ما بلغته من نجاح يا آجنس إنما أدين به لك.. أنت التي صنعتني

– أنا صنعتك يا تروتوود؟

– نعم يا "آجنس" لقد حاولت أن أقول لك – حين التقينا اليوم – شيئا يدور في ذهني منذ ماتت دورا.. هل تذكرين يوم نزلت إلي في غرفتي الصغيرة، وجعلت تشيرين باصبعك إلى أعلى؟

فاستدارت إلي وقد امتلأت عيناها بالدموع:

– أوه يا تروتوود.. وهل أستطيع أن أنسى يوما؟

– لقد طالما قلت لنفسي أنك كنت لي على الدوام مثلك في ذلك اليوم يا أختاه، وأنت تشيرين إلى أعلى. فلقد طالما دفعتني إلى الأمام، وحفزتني إلى الاتجاه إلى مستقبل أفضل.. دائما كنت تقودينني إلى العلا. فلم تفعل سوى أن هزت رأسها، ومن خلال دموعها رأيت نفس الابتسامة الحزينة الهادئة. فاستطردت قائلا:

– لكم أنا شاكر لك فضلك هذا يا آجنس! بل إن الشعور الذي ينطوي عليه قلبي نحوك لا اسم له في القاموس. أريدك أن تعلمي – وإن كنت لا أعرف كيف أخبرك – إنني سأظل طيلة حياتي أتطلع إليك، وأهتدي بإرشادك وهديك. مثلما كنت خلال الظلمات التي اكتفت حياتي في الماضي!. وأيا كانت الصلات التي قد تنشئينها، والتغيرات التي قد تطرأ فتفرق بيننا، فسوف أتطلع دائما إليك، وأحبك كما أفعل الآن، وكما أحببتك على الدوام!. سوف تكونين دائما ملاذي الأول والأخير، كما كنت في كل حين. وسوف أراك دائما –حتى أموت يا أختاه– أمامي في كل لحظة، تشيرين باصبعك إلى أعلى!

ووضعت يدها في يدي، مؤكدة لي أنها فخور بي وبما قلت، برغم أنني جاوزت في مديحها ما تستحقه.. ثم استأنفت عزفها على البيانو في نعومة ورقة، ولكن من غير أن تحول عينيها عني. واستطردت أقول:

- "هل تعلمين يا "آجنس" أن ما سمعته اليوم يكاد يبدو لي صورة مطابقة للشعور الذي تملكني نحوك حين رأيتك لأول مرة، وحين جلست بجانبك في أيام دراستي الخشنة؟"

فأجابت وهي تبتسم: "إنك عرفت أني بلا أم، فأدركتك الشفقة علي.

- بل أكثر من ذلك يا "آجنس". عرفت أن هناك شيئا لطيفا غامضا ورقيقا يحيط بك. شيئا كان يمكن أن يكون في فتاة غيرك مدعاة للكآبة والحزن، لكنه لم يكن كذلك فيك واستمرت تعزف في نعومة، وهي تنظر إلي، ومضيت أنا في كلامي:

- هل تضحكين من تعلقي بمثل هذه الأوهام؟

- كلا..

- وهل تضحكين من قولي أنني شعرت - حتى في ذلك الوقت أنك - تستطيعين أن تكوني محبة مخلصة برغم جميع المثبطات، ولا تكفين عن أن تكوني كذلك إلا إذا كففت عن الحياة؟ هل تسخرين من حلم كهذا؟

- أوه، أبدا. أبدا!

ران على وجهها ظل قاتم، لم يبق إلا لحظات ثم استرددت ابتسامتها الهادئة وهي تنظر إلي وتمضي في العزف.

* * *

وحين امتطيت جوادي عائدا إلى منزلي، في الليل الموحش، والريح تصفر وهي تمرق بجانبي كذكرى هائمة على وجهها فكرت في كل هذا الذي قالته لي آجنس. وخرجت منه بنتيجة مرجحة: إنها ليست سعيدة. لكنني أنا أيضا غير سعيد.. وإن كنت قد نجحت حتى الآن في أن أسدل الستار على الماضي..

ثم فكرت في إشارتها باصبعها إلى أعلى، فخيل إلي أنها تشير إلى هذه السماء التي فوقي، حيث قد أظل على حبي إياها. في الحياة الآخرة! حبا غير معروف على الأرض. وقد أصف لها مبلغ قسوة الصراع الذي كان يعتمل في نفسي وأعماقي حين أحببتها في الحياة الفانية، هنا!

الفصل الرابع عشر

حل وقت عيد الميلاد، وكان قد انقضى عليّ في أرض الوطن أكثر من شهرين، رأيت خلالهما آجنس كثيرا.. كنت أمتطي جوادي إلى هناك مرة كل أسبوع، وأحيانا مرتين، وأقضي الأمسية معها. ثم أعود في ساعة متأخرة من الليل، وكان شعوري القديم بشقائي يراودني كل حين، وخاصة حين أتركها. فكنت أبدد أطول جزء من ليالي القاتمة الكئيبة في تلك الزيارات. وأستعيد في فترة الطريق كل الأفكار والخيالات التي شغلتني ومرت بذهني خلال غيبتي.

وحين كنت أقرأ لآجنس خواطري التي أكتبها في ساعات وحدتي، وحين أرى وجهها وهي تصغى إليّ. وأنا أوحي إليها بالدموع أو البسمات. أو أسمع صوتها العذب يعلق باهتمام على أحداث العالم الوهمي الذي أعيش فيه.. كنت أقول لنفسي: "أي مصير ممتع كاد يكون مصيري، لو..

لكن حديثي لم يكن يجاوز حد.. التفكير، وأدركت كم أحبتني آجنس حبا أسأت فهمه بأنانيتي، ولم يعد في وسعي استعادته. لكنني أدركت أيضا أنني يجب ألا أتذمر أو أشكو، وإنما يجب أن أحتمل نتيجة حماقتي، على أنني –برغم ذلك– لم أستطع إلا أن أحبها. وأن أتطلع في إشفاق إلى اليوم الذي أستطيع فيه أن أعترف لها بحبي وأصفه لها، بعد أن أشيخ، قائلا لها: آجنس.. هكذا كنت أحبك بعد عودتي إلى أرض الوطن.. ومنذ ذلك الوقت حتى الآن وقد صرت شيخا مسنا لم أحب امرأة غيرك".

أما هي فلم تظهر لي يوما أي تغير في نفسها أو في مسلكها نحوي.. فبدأ يساورني ويرهقني شك هائل: ترى هل أدركت ما يعتمل في صدري؟ إن لم تكن فعلت فإن اختزاني عاطفتي في جوفي وعدم الإفصاح عنها يكون تضحية عقيمة من جانبي، وهكذا استقر عزمي على أن أضع حدا لكل هذه البلبلة، وأحطم الحاجز الذي يفصل بيننا فورا بضربة واحدة من يد حازمة..

وذات يوم بارد من أيام الشتاء، كان الجليد يتساقط بغزارة منذ ساعات، ويكسو الأرض ببساط أبيض سميك. ومن نافذتي رأيت الريح تعصف بشدة من ناحية الشمال، فوق البحر. وسألتني عمتي وهي تطل برأسها من باب حجرتي:

– هل ستخرج بجوادك يا تروت؟

– نعم، سأذهب إلى كانتربري. إن الطقس جميل مناسب للركوب.

– أرجو أن يؤمن جوادك بذلك. فها هو و واقف أمام باب الحظيرة في هيئة من يفضل البقاء فيها من حق عمتي عليّ أن أقول إنها سمحت لجوادي بأن يطأ بساط الحشائش المقدس، لكنها لم تخفف من تزمتها في صدد منع الحمير الغريبة من السير فوقه، وأجبتها بشأن الجواد قائلا:

– إنه لن يلبث أن يرحب بالخروج للنزهة!

– على أي حال فإن الخروج سينفع سيده!

ثم حانت منها نظرة إلى الأوراق التي فوق منضدتي، فقالت:

– إنك تقضي وقتك في الكتابة.. إني لم أتصور قط وأنا أقرأ القصص مبلغ العناء الذي تقتضيه كتابتها

– إن قراءتها ذاتها تكون أحيانا عملا شاقا. أما الكتابة فإن لها جاذبيتها الخاصة يا عمتي.

وعندئذ ربتت كتفي وجلست في مقعدي. فانتهزت هذه الفرصة كي أسألها:

– هل تعرفين مزيدا عن تلك الصلة التي حدثتني عنها بشأن آجنس؟ فنظرت إليّ في وجهي برهة قبل أن يجيب:

– أعتقد أنني أعرف يا تروت!

– وهل استوثقت من معلوماتك؟

– أعتقد ذلك يا تروت!

ونظرت إليّ نظرة تنطوي على شئ من الشك، أو الشفقة، أو القلق والحيرة.. فرأيت أن أبادر بالابتسام كي أبدد قلقها.. وإذ ذاك استطردت:

– والأكثر من ذلك يا تروت..

– ماذا؟

– إن آجنس على أهبة الزواج! فقلت في لهجة انشراح:

– فليباركها الله..

– فليباركها الله.. هي وزوجها!

رددت العبارة مغمغما، ومضيت أهبط السلم. ثم امتطيت جوادي وانطلقت في طريقي، وقد قويت في نظري دوافع إقدامي على الخطوة التي اعتزمتها.

كان الهواء طول الطريق يقذف وجهي برذاذ الجليد المتناثر. وحوافر الجواد توقع على الأرض توقيعا منتظما. وحين وصلت وجدت آجنس وحدها. كانت تلميذاتها الصغيرات قد تفرقن إلى بيوتهن، فجلست هي إلى جوار المدفأة تقرأ. ولم تكد تراني أدخل حتى تركت الكتاب جانبا، ورحبت بي كعادتها، ثم تناولت سلة أشغال الإبرة وجلست إلى إحدى نوافذ الغرفة، ذات الطراز العتيق. فجلست بجانبها، ورحنا نتحدث!

تحدثنا عن عملي، وتقدمي فيه منذ زيارتي الأخيرة. وكانت تبدو منشرحة، وتنبأت لي ضاحكة بأني سوف أصير مشهورا إلى درجة لا يعود من المناسب معها التحدث معي في هذه الأمور، وفيما أنا أنظر إلى محياها الجميل، وهي عاكفة على تطريزها، رفعت عينيها الصافيتين، ورأتني أنظر إليها.

– إنك تبدو شارد الفكر اليوم يا تروتوود؟

– هل أخبرك فيم أفكر؟ لقد جئت خصيصا لذلك! فوضعت ما في يدها جانبا، كما اعتادت أن تفعل كلما تحدثنا في أمر جدي. وأعارتني انتباهها

– عزيزتي آجنس. هل تشكين في إخلاصي وصدقي معك؟

- كلا.!

- وهل تشكين في أني أكن لك من الشعور ما اعتدت أن أكنه لك في الماضي دائما؟

- كلا.!

- أتذكرين أني حاولت أن أشرح لك -عند عودتي إلى هذه البلاد- مبلغ ما أدين به لك، ودرجة حرارة شعوري نحوك يا عزيزتي آجنس؟ فقالت في رقة:

- نعم، أذكر ذلك جيدا..

- إنك تخفين سرا. فدعيني أشاطرك إياه يا آجنس فخفضت عينيها. وارتجفت.. بينما واصلت كلامي:

- لا يكاد يخفي عليّ إن هناك شخصا وقفت عليه كنز حبك.. فلا تقصيني عما يمس سعادتك. وما دمت تولينني ثقتك كما تقولين، وكما أعلم أنك تفعلين، فدعيني أكن صديقك، بل أخاك في هذه المسألة بالذات.

نهضت آجنس من مجلسها إلى جوار النافذة وهي ترمقني بنظرة تأنيب، وأخذت تذرع الغرفة على غير هدى، ثم وضعت كفيها على وجهها وأجهشت بالبكاء في حرارة وانفعال مزقا قلبي، وإن يكونا قد أحييا موات الأمل في صدري. فإن تلك الدموع قد ذكرتني -لا أدري لماذا- بابتسامتها الحزينة الهادئة التي كانت محفورة في خيالي. وأوحت إلي بالأمل أكثر مما أوحت إليّ بالخوف أو الأسى. وهتفت بها ملتاعا:

– آجنس.. يا عزيزتي. ماذا بربك فعلت لك؟

– دعني أذهب يا تروتوود. إني لست بخير .. لست في حالتي الطبيعية. سوف أصارحك بالأمر كله في مرة أخرى. سأكتب إليك. لا تكلمني في هذا الآن. وحاولت أن أستعيد ما قالته لي في حين تحدثت معها في تلك المرة السابقة، عن عاطفتها التي لا تحتاج إلى مبادلة.. لكن حديثها لي أشبه بعالم واسع يتعين عليّ أن أجوبه كله في لحظة. فهتفت بها:

– آجنس لا أستطيع أن أراك هكذا، وأن أعلم أنني السبب. يا أعز مخلوقة عليّ في الدنيا بأسرها: إذا كنت شقية فدعيني أشاطرك شقاءك وإذا كنت في حاجة إلى معونة أو مشورة فدعيني أحاول تزويدك بهما. وإذا كان قلبك مثقلا بحمل ما فدعيني أخففه عن كاهلك. فلمن أعيش أنا الآن يا آجنس إذا لم يكن من أجلك؟

– أوه، أعفني.. إنني لست في حالة تسمح بذلك. دع الأمر إلى مرة أخرى.

ترى هل أخطأت في ظني؟. هل كنت مقودا إلى تصرفي ذاك بأنانية حمقاء؟ ثم استطردت ضارعا: بل يجب أن أقول لك مزيدا. لا أستطيع أن أدعك تتركني معلقا.. بحق السماء يا آجنس لا تدعينا نخطئ الحكم أحدنا على الآخر بعد كل تلك السنين، وكل ما جاءت به وأخذته. يجب أن أصارحك القول: إذا كان يخطر ببالك لحظة أنني يمكن أن أحسد الشخص الذي سوف تسعدينه، أو أتردد في التخلي عنك إلى شخص من اختيارك، يستطيع أكثر مني

أن يحميك، أو أنني لا أستطيع أن أكون شاهدا قانعا بهناءتك، فانزعي هذه الأفكار من ذهنك، فإنه لا أثر للأنانية فيما أحسه نحوك.

وكانت قد هدأت فأدارت وجهها الشاحب نحوي، قالت في صوت خفيض، متقطع لكنه واضح:

– بحق صداقتك النقية لي يا تروتوود أقول لك أنك مخطئ. ولست أستطيع أن أزيد. وإذا كنت، خلال السنوات الماضية، قد احتجت يوما إلى عون أو مشورة، فقد نلتهما.. وإذا كنت قد شقيت أحيانا، فقد انقضى شعوري بشقائي. أو كان قلبي يوما مثقلا بحمل ما، فقد نزع عن كاهلي. أو كنت أخفي سرا، فليس هذا بالأمر الجديد، ولا هو بالسر الذي تظنه. ولست أستطيع أن أكشفه أو أدعك تشاركني إياه. لقد طالما كان سري الخاص، وينبغي أن يظل كذلك؟

– آجنس.. امكثي.. لحظة.

وكانت قد همت بالخروج، لولا أن احتجزتها. لففت ذراعي حول خصرها، وقد طافت برأسي دوامة من الأفكار والآمال الجديدة، وتغيرت في ناظري كل ألوان حياتي. ورن في أذني قولها: "خلال السنوات الماضية". و"ليس بالسر الجديد". فقلت لها مناشدا:

– عزيزتي آجنس يا من أحترمها وأجلها. يا من أحبها حبا متفانيا. عندما جئت اليوم كنت أحسب أن شيئا لن يستطيع انتزاع هذا الاعتراف من صدري. وإنني سأصونه في صدري مدى الحياة، حياتي وحياتك.

حتى نشيخ. ولكن، إذا كان قد انبثق في قلبي ثمة أمل جديد في أن أستطيع أن أناديك بغير كلمة "أختاه"، بكلمة أبعد ما تكون عنها.

وتساقطت دموعها غزيرة.. لكنها لم تكن كالدموع التي ذرفتها قبل دقائق.. بل كانت دموعا لمحت أملي يبرق في ثناياها.. دموع فرح أكثر منها دموع حزن!

– آجنس.. يا من ستظلين خير عون وسند لي.. عندما أحببت دورا في شغف، كما تعلمين فصاحت ملهوفة: "نعم.. يسرني أن أعلم ذلك".

– عندما أحببتها، حتى وقتئذ، ما كان حبي ليكمل بغير عطفك.. وقد منحتني عطفك كاملا!.. وحين فقدتها، لا أدري كيف يكون مصيري لولا أنك بقيت لي! وأخذتها بين ذراعي، أنا الذي حسبت أنني لن أحظى بذلك يوما. واستكان رأسها لصق قلبي، ويدها المرتعشة فوق كتفيّ، وعيناها المشرقتان العذبتان من خلال دموعها.. في عينيّ. ثم استطردت:

– لقد رحلت بعيدا يا عزيزتي آجنس.. وأنا أطوي قلبي على حبك.. ومكثت بعيدا، وأنا أحبك.. وعدت إلى الوطن، وأنا أحبك ثم حاولت أن أقص عليها قصة الصراع الذي قاسيته في أعماقي.. والخاتمة التي انتهيت إليها.. وأن أفتح رأسي وقلبي لها على مصراعيهما، في صدق وإخلاص.. فأوضحت لها تطورات عاطفتي نحوها.. وقلت لها:

– إذا كنت قد أحببتني، بحيث تستطيعين أن تتخذيني زوجا لك، فلتفعلي ذلك، لا على أني أستحقه وجدير به.. وإنما ارتكانا على صدق

حبي لك، وللنظروف القاسية التي نضج فيها هذا الحب! ثم ختمت مفاتحتي قائلا: "أواه يا آجنس!. إن روح "دورا" لتطل عليّ من عينيك الصادقتين، مباركة ومعززة اعترافي وحبي!"

– وأنا أحس بفيض من البركات يا تروتوود وبقلبي يمتلئ منها ويفيض لكن هناك شيئا واحدا يجب أن أقوله.

– ما هو يا حبيبتي؟

فوضعت يديها الناعمتين على كتفي، ونظرت في وجهي بهدوء:

– أتعلم ما هو؟

– أخشى أن أرجم بالغيب فأخطئ. أخبريني يا حبيبتي!

– لقد أحببتك طيلة حياتي! وكم غمرتنا السعادة، كم غمرتنا السعادة!. وانهمرت من عيوننا الدموع، لا ألما من التجارب المريرة التي مرت بنا، بل نشوة بالإرتباط الأبدي الذي تحقق لنا.

* * *

وسرنا في تلك الليلة الباردة من ليالي الشتاء، في الحقول القريبة، وقد خيل إلينا أن الهواء المقرور قد استمد منا هدوءه المبارك. وبدأت النجوم الباكرة تشرق ونحن نتسكع ونتطلع إليها. فشكرنا الله لأنه قادنا إلى هذه السكينة الممتعة التي تسود داخلنا وخارجنا! وفي المساء وقفنا جنبا إلى جنب، أمام نفس النافذة ذات الطراز العتيق، وكان القمر ساطعا. وآجنس تنظر إليه بعينيها الهادئتين. وأنا أتابع نظرتها كالحالم.

وعند غروب اليوم التالي مثلنا أمام عمتي. وحين وصلنا قالت بيجوتي: إنها في الطابق العلوي تعد غرفتي، كما كان يحلو لها دائما.. ووجدناها جالسة بجوار المدفأة، وعويناتها على عينها. فهتفت بي أول ما لمحتني، وكانت عتمة الغسق قد بدأت تسود الغرفة:

– من هذه التي جئت بها إلى البيت؟

– إنها آجنس.

ولما لم أزد، خلعت عويناتها وحكت بها أنفها في حيرة ثم حيت آجنس مرحبة، ترحيبا قلبيا، وبعد حين كنا في الطابق الأول حول مائدة العشاء. حيث وضعت عمتي عويناتها وخلعتها يائسة أكثر من مرة، محاولة أن ترى على وجهي ما يلقي الضوء على الموقف، وأخيرا، بعد أن طابت لنا الدعابة، قلت لعمتي بعد العشاء:

– لقد تحدثت إلى "آجنس" بشأن ما قلته لي. وظهر أنك على حق. إنها ستتزوج فعلا.. فقالت وقد احمر وجهها كالقرمز:

– إذن. فقد أخطأت يا تروت. وحنثت بوعدك..

– إنك لست غاضبة يا عمتي؟ أنا واثق أنك لن تغضبي إذا علمت أن آجنس ليست مرتبطة بأية صلة تعسة.

– هراء.

وإذ بدأت عمتي تضيق بتكتمنا، رأيت أن أقطع الطريق على ضيقها، فأخذت في ذراعي إلى خلف مقعدها، وانحنينا كلانا عليها وقبلناها ونحن

نزف إليها النبأ.. وسرعان ما أقبلت بيجوتي، وأقبل مستر ديك، والتأم شملنا في جو من الحبور والبهجة.. وتزوجنا بعد أسبوعين. ولم يحضر زفافنا غير ترادل وزوجته صوفي ودكتور سترونج وزوجته، وبعد إتمام مراسم العقد، تركنا الجميع، وانسللنا إلى نزهة خلوية. وفي عناق حار احتضنت منبع أغلى أنفاسي، ومحور روحي، ومركز حياتي. زوجتي التي تأسس حبي لها على صخر.. وقالت لي آجنس: "زوجي الحبيب. الآن وقد صار في وسعي أن أناديك بهذا الاسم، عندي شئ واحد أقوله لك".

– دعيني أسمعه يا حبيبتي

– إنه يتعلق بتلك الليلة التي ماتت فيها دورا. إنك تذكر أنها أرسلتك كي تدعوني إليها.؟

– نعم.

– لقد قالت لي وهي تموت أنها تترك لي شيئا. أتعرف ما هو؟ وجذبت إلى صدري الزوجة التي طالما أحبتني، وتركتها تجيب نفسها بنفسها:

– قالت لي أنها تلتمس مني فضلا أخيرا، تترك لي وديعة أخيرة

– وما هي.؟

– إن أشغل المكان الذي تركته فارغا بموتها..

وأسندت آجنس رأسها على صدري. وبكت. وبكيت أنا معها برغم أننا كنا سعيدين!

الفهرس